مجالس الحديث النبوي الشريف

الجزء الأول

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى ورضي عنه

في هذه المجالس

بيانات بعض أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
التي ذكرها الإمام البخاري رضي الله عنه في الجامع الصحيح
وهي مجالس الشيخ الإمام في جامع الحموي
يوم الأربعاء بعد شروق الشمس بقليل

جمع وتقديم

ولده

المهندس محمد محيي الدين سراج الدين

دكتوراه في الدراسات الإسلامية

اعتنى بالكتاب وخرَّج أحاديثه

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال : [كتاب بدء الوحي] ، ثم أورد بسنده إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

[أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه] – وهو التعبُّد – [الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال صلى الله عليه وسلم : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني فقال :

{ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق* اقرأ وربُّك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم } فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فقال : (زمّلوني زملوني) فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسي) فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذعاً ، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوَ مُخرِجِيَّ هم ؟ ! قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي .. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي ..] اهـ

وحي الله تعالى إلى رسوله هو إعلامه سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن أمور هامة بطريقة خفية على وجه السرعة ..

ويقال في اللغة : [وحى إليه] و[أوحى إليه] ، بمعنى واحد .

ووحي الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على أنواع : فهناك الوحي عن طريق الرؤيا المنامية ، وهناك الوحي بتكلم الملك ، وإما أن يتمثل الملك بصورة رجل يراه رسول الله ويكلمه ، وقد يبقى الملك على حقيقته الملكية ويوحي إلى رسول الله ما أراد الله تعالى .

وقد دلّ الخبر على أن أول نوع من أنواع الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عن طريق الرؤيا المنامية كما في رواية البخاري :

(أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم) .

وفي رواية مسلم : (الرؤيا الصادقة في النوم) .

والرؤيا الصادقة أن يرى شيئاً في المنام فيأتي الواقع كما رأى مصدقاً لها ، والرؤيا الصالحة هي ما فيه صلاح الرأي ما بين تنبيه وتعليم وبشارة ..

فكان صلى الله عليه وسلم لا يرى شيئاً إلا تحقق في الواقع تحققاً بيناً واضحاً مثل نور الفجر لا لبس فيه ..

وبقي على ذلك مدة ستة شهور أي بدأ ذلك من ربيع الأول إلى ليلة القدر في رمضان إذ نزل عليه جبريل عليه السلام بأول خمس آيات من سورة اقرأ وهي سورة العلق ..

قولها رضي الله عنها : (يتحنث) من التحنث وهو ترك الحنث وهو الإثم ، والتباعد عنه لعبادة الله تعالى [1] ، فلم يتدنس صلى الله عليه وسلم بدنس الجاهلية منذ صغره ، بل كان يتباعد عن قومه ويخلو بغار حراء يتعبد الله تعالى .

قول السيدة عائشة رضي الله عنها :

(يتحنث الليالي ذوات العدد ويتزود لمثلها) .

وفي هذا دليل جواز الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى ..

---

[1] وهذا من صيغة السلب فيقال : [فلان حنث] أي وقع في الحنث ، و [تحنَّث] أي :تباعد عن الحنث ، ويقال لمن خالف ما حلف عليه : [حنث] أي وقع في إثم اليمين ، ويقال :[فلان حَرَج] أي وقع في الحرج ، و[تَحرَّج] أي تباعد عن الحرج ، وكذا [مرض] إذا أصابه المرض و[تمرض] إذا أخذ بأسباب الشفاء .

وليعلم الإنسان أن تعاطي الأسباب المشروعة لا ينافي التوكل على الله تعالى ، إذ إنه سبحانه هو الذي خلق الأسباب ووضعها أسباباً ولا تأثير لها من ذاتها ، بل هو سبحانه المؤثر فيها والفعال لما يريد جل وعلا ، فتبقى الأسباب أسباباً وليست أرباباً بل هي خَدَمَة بين يدي رب العالمين إن شاء خلق ما أراد وإن شاء أهملها .

وعلى ذلك فلا طعام يُشبع من ذاته ، ولا ماء يروي من ذاته ، ولا دواء يشفي من ذاته ، ولا نار تُحرق من ذاتها وهكذا ، فالمؤثِّر والفعَّال في الأسباب هو خالق الأسباب ، وهو رب العالمين جل وعلا .

فشأن المؤمن أن يتوكل على الله تعالى ويأخذ بالسبب الذي شرعه الله تعالى معتقداً بقلبه أن المؤثر هو الله تعالى .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(جاء رجل على ناقة له فقال : يا رسول الله ، أدَعها وأتوكل ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل) [1].

قولها رضي الله عنها :

[حتى جاءه الحق فجاءه الملك وقال : (اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ)] .

---

[1] انظره في شعب الإيمان للبيهقي وأصله في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

فلقد أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام وحمَّله علوماً ومعارف وأسراراً وأنواراً ليفيضها على سيدنا رسول الله ، فصار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مهبط الأسرار والأنوار والعلوم والمعارف الإلهية .

وجبريل عليه السلام رئيس الملائكة عليهم السلام ، أثنى عليه سبحانه ووصفه بقوله جل وعلا : { ذي قوة عند ذي العرش مكين * مُطاعٍ ثمّ أمين }

فله المكانة والرتبة العالية عند أهل السماء والملأ الأعلى وله الأمر عليهم ، وعليهم طاعته ، والكل يمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى .

كما أنّ له القوة الروحية الملكية والقوة الحسية ، وقد بلغ من قوته أنه عليه السلام بريشة واحدة من أجنحته - وله ستمائة جناح - اقتلع خمس مدائن من مدائن قوم لوط وقلبها على رأسها وأهلكها بأمر الله تعالى .[١]

وهو عليه السلام أمين الله على وحيه سبحانه إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وإن قول جبريل عليه السلام لسيدنا رسول الله : (اقرأ) لا عن جهل منه برسول الله أنه أمي لا يقرأ ، ولكن لتكون سبباً أن يضمه إليه ويفيض عليه ما أرسله الله تعالى به .

---

[١] انظر تفسير القرطبي لقول الله تعالى : { ذو مرة فاستوى } .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد) أي أحسّ رسول الله بالشدة والتعب من ضمّة جبريل القوية إليه ، مع أن سيدنا رسول الله قد خصّه الله بالقوة الروحية والحسية العالية .

وفي بعض روايات الحديث عند الطبراني وابن اسحق أنه صلى الله عليه وسلم قال : (فغتَّني) - وهو الضم مع حبس النفس - ، وهذا يدل على معانٍ كثيرة ، ففي قوة ضمة جبريل عليه السلام لرسول الله كأنه أخذه إلى عالم آخر وهكذا .

وفي هذه الغطات الثلاث إفاضات من رب العالمين على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إفاضات علوم ومفاهيم وأسرار وأنوار لا يعلم عِظَمها إلا الله تعالى ، ومنها ما رجع للنفس ، ومنها ما رجع للقلب ، ومنها للروح ، لأن قوام الإنسان على هذه الأمور الثلاثة .

وفي المرة الثالثة أرسله وقال له : { اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم } .

والمعنى : أنك يا رسول الله نشأتَ أمياً لم تتعلم القراءة ولا الكتابة ولم تستمع إلى أحد ، فاقرأ الآن باسم ربك ، لا بسابق علم ولا دراسة منك ، فربُّك الذي رباك وتعهدك منذ الصغر هو يعلمك ويقرئك ، فاقرأ باسمه جل وعلا .

قوله تعالى : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } أي خلق كل شيء كما قال سبحانه في آيةٍ ثانية : { الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل } .

وبعد أن ذكر سبحانه خلقه لعموم الأشياء خص بالذكر أشرف أنواع المخلوقات الدنيوية وهو الإنسان فقال تعالى : { خلق الإنسان من علق }

وهذا تخصيص بعد تعميم .

فليتفكر الإنسان في أصل خلق الله له وكيف طوّره سبحانه في التخليق من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن سوّاه جنيناً ثم طفلاً وهكذا إلى أن صار إنساناً كاملاً يتمتع بالقوى الحسّية والمدارك والعقل ، فما أعظم قدرة الله تعالى الذي طور خلق الإنسان من مرتبة العلقة إلى الإنسانية الكاملة ..!!

وإن الذي قدر على خلق الإنسان وتطويره في الخلق من العلقة الصمَّاء إلى الإنسان الكامل لهو قادر سبحانه على أن يعلمك يا رسول الله ويفيض عليك من العلوم والمعارف الإلهية ما لم يعطِ غيرك بأن جعلك نبياً ورسولاً إلى كافة خلقه وختم بك الرسالات الإلهية .

قوله تعالى : { اقرأ وربُّك الأكرم } أي إن ربّك هو أكرم الأكرمين ، وأكرميَّته قد ظهرت فيك يا رسول الله على أعظم وجه لأنك يا رسول الله أكرم الخلق عليه سبحانه .

فقد نال صلى الله عليه وسلم من كرم الله تعالى ما لم ينله نبي ولا رسول غيره ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

(وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ، ولا فخر) [١].

[١] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب المناقب عن ابن عباس رضي الله عنهما

قوله تعالى : { الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم } .

فإذا كان الإنسان يتعلم بواسطة القلم ، والعلم على مراتب وأنواع ، فقد علّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام ، والفرق كبير بين من كان واسطة تعليمه القلم ، ومن كان واسطة تعليمه جبريل الأمين عليه السلام ، وإذا كانت علوم بني الإنسان هي بواسطة القلم فما بالك بعلوم رسول الله الذي تولى الله تعالى تعليمه بواسطة جبريل عليه السلام ؟!

نعم ، الأمر أجلّ وأعظم ولا وجه للمقارنة ، ولا يعلم أحد علمه وفضله صلى الله عليه وسلم إلا الذي أعطاه جل وعلا .

أما ضمّة جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فهي نوع من أنواع الوحي الإلهي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسمى :
الوحي بالإفاضة .

وقد ضمّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما قال :

(ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللّهُمَّ علمه الكتاب) [١] .

---

[١] انظر صحيح البخاري كتاب العلم

وفي سنن ابن ماجه : (اللّٰهُمَّ علمه الحكمة وتأويل الكتاب) .

وفي مسند الإمام أحمد : (اللّٰهُمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل) [1] .

فصار ابن عباس رضي الله عنهما من أكابر علماء الصحابة ، ورغم صغر سنه كان يفهم من أسرار القرآن ما خفي على غيره حتى سمّاه السلف : حبر الأمة وترجمان القرآن .

وللبحث تتمة ، ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

---

[1] المسند ٢٢٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال : [كتاب الوحي] ثم ذكره بسنده إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :

(أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه) - وهو التعبُّد – (الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : { اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم } .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زمّلوني زمّلوني ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسي) فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة وكان امرأ تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله : أَوَ مُخرِجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي).

قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يخبر عن فترة الوحي فقال في حديثه أي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً في السماء فرفعت بصري فإذا ذلك الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض قال : فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني فنزل قوله تعالى : { يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر } فحمي الوحي وتتابع . اهـ

يدل هذا الحديث على قوة سند هذا الدين فقد نزل على سيدنا رسول الله بوحي من الله تعالى ، وإن باب الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فيض علوم ومعارف كبيرة لا يحيط بها أحد إلا الله تعالى .

قول السيدة عائشة رضي الله عنها :

(أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة) أي : أول ما بدئ به من أنواع الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، وقد يلتبس على الإنسان أن رسول الله لم يكن قد تزوّج السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها عند بدء نزول الوحي بمكة فكيف حدَّثت عنه صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث ؟

فيقال : إن سيدنا رسول الله هو الذي أخبر السيدة عائشة رضي الله عنها عن بدء نزول الوحي فحدَّثت رضي الله عنها بما سمعت من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يدل على ذلك قولها في الحديث : (قال : فأخذني فغطني) أي قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الرؤيا المنامية فهي على ثلاثة أنواع :

الرؤيا الصالحة أو الصادقة ، وهناك رؤيا حديث النفس ، وهناك رؤيا شيطانية يقال عنها : أضغاث أحلام ، ولكل منها حكمها .

قولها رضي الله عنها (ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء)

وغار حراء يطل على الكعبة المشرفة ، فالجالس فيه يرى الكعبة المشرفة ، والنظر إلى الكعبة عبادة لله تعالى [1] كما أن البعد عن المشركين عبادة ، فكان صلى الله عليه وسلم يعبد الله تعالى في غار حراء .

[1] ذكر الإمام العجلوني في كشف الخفا حديث : (النظر إلى الكعبة عبادة والنظر إلى وجه الوالدين عبادة والنظر في كتاب الله عبادة) .
وعزاه إلى الديلمي عن السيدة عائشة رضي الله عنها

وللخلوة مدة معينة قد تكون ثلاثة أيام ، وقد تكون سبعة أيام ، وقد تمتد إلى الشهر ، أو إلى أربعين يوماً ، والغاية منها جلاء القلب عن الأغيار حتى يصير المختلي على وجهة إلى ربه سبحانه وتعالى ، وعلى هذا جرى أهل الله رضي الله عنهم ، وأما من جلس في الخلوة وجعلت الأفكار والخواطر تجول في نفسه فمثل هذا لم يستفد من خلوته شيئاً لأنه خلا بعقله ولم يخْلُ بربه جل وعلا ، فللخلوة شروط وأحكام واستعداد .

وقولها رضي الله عنها : (حُبب إليه الخلاء) : أي أن الله تعالى هو الذي حبب إليه أن يعتزل قومه ويخلو بربه سبحانه ، وهذا من جملة تهيئة الله تعالى وإعداده لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه الوحي .

قولها رضي الله عنها : (حتى جاءه الخبر) : أي جاءه بيان الحق بنزول الوحي عليه ، لأن الحق لا يُعرف إلا من الله الحق ، وكل ما كان عن الحق جل وعلا فهو حق .

قوله صلى الله عليه وسلم : (ما أنا بقارئ) أي لم أتعلم القراءة لأنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمياً ، وهذه مفخرة وفضيلة في حقه صلى الله عليه وسلم إذ إن الله تعالى تولى تعليمه ، فخبر بعلوم إلهية لم يكتسبها من أحد من الخلق ، بل هي بتعليم الله ووحيه إليه ، وهذا أكبر شاهد حق على أنه رسول الله حقاً ، لأنه لو كان متعلماً لربما قالوا في حقه صلى الله عليه وسلم : إنه سمع هذه العلوم أو أخذها من غيره ، لكنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمياً ، وقد شهد بذلك قومه ، ولم يتعلم من أحد ولم يقرأ على أحد .

فلم يوكل سبحانه تعليم رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أحد من الناس بل تولى سبحانه تعليم رسوله وأوحى إليه القرآن والحكمة ..

قال تعالى : { وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً } .

قوله صلى الله عليه وسلم : (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد) : وهذا نوع من أنواع الوحي كما تقدم بيانه ، فنزل جبريل عليه السلام بعلوم ومعارف وأسرار من عند الله تعالى وأفاضها على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } : أي اقرأ باسم ربك لا بسابق دراسة وعلم منك ، بل اقرأ باسم ربك الذي رباك وتعهدك بعنايته منذ صغرك ، فربُّك الذي يقرئك ويعلمك ويوحي إليك .

قوله تعالى : { الذي خلق } : أي خلق كل شيء من المخلوقات ، ثم خصّ سبحانه ذِكر نوع من الخليقة وهو أشرف الخليقة فقال تعالى : {خلق الإنسان من علق } فذكر سبحانه خلقه للإنسان الذي هو أشرف المخلوقات إن هو أطاع أمر الله تعالى له .

قال تعالى : { ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً } .

فهذا الإنسان - وما يتمتع به من بيان وفصاحة وعقل وعلم وحكمة وإرادة وسمع وبصر - هذا الإنسان خلقه تعالى من علق – جمع علقة – .

والمراد من الإنسان في الآية جنس الإنسان ، أي فخلق سبحانه كل إنسان من علقة ، لا أنه جل وعلا خلق كل إنسان من عدة علقات[١] .

والعلقة هي ما يتعلق بالشيء متمسكاً به ، وسميت الدودة المعروفة بـ العلقة لأنها تعلق على موضع الدم الفاسد في الجسد فتمصُّه .

---

[١] (الـ) في كلمة الإنسان في الحديث الشريف هي للجنس وليست للعهد .

وقوله تعالى : { خلق الإنسان من علق } أي من قطعة لحم كانت في الأصل نطفة اجتمعت من ماء الرجل والمرأة ، ثم طورها سبحانه إلى قطعة لحم تعلقت بجدار رحم المرأة تستمد أسباب نموها من دم المرأة ، وسميت لذلك علقة لأن تمسكها بجدار الرحم مكين ثابت كما قال تعالى : { ثم جعلناه نطفة في قرار مكين} فلينظر الإنسان وليتفكر في أصل خلقه ، وكيف أنه سبحانه حوله من نطفة إلى علقة صماء ثم طوره وطوره إلى أن صار إنساناً يتمتع بقوة وإدراك وسمع وبصر وهكذا حتى طاف الأرض وعمرها ، فليتفكر كل إنسان في تلك القدرة التي طورته من تلك العلقة إلى أن صار إنساناً خصيماً مبيناً .

نعم لا قدرة لأحد على ذلك إلا الله تعالى الذي خلق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، قال تعالى :

{ أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين } .

وإن الذي خلق هذا الإنسان وطوره من علقة لهو قادر على أن يبعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ويعلمه ويفيض عليه العلوم والمعارف وإن كان صلى الله عليه وسلم قد نشأ أمياً فهو سبحانه وتعالى أعدَّهُ وأمدَّهُ وعلَّمهُ العلوم والأسرار والأنوار وأعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين وهذا قوله سبحانه : { اقرأ وربك الأكرم } أي وربك الأكرم على كل خلقه له عليك أكرمية خاصة ، ومن أكرميته عليك أنك نشأت أمياً فتولى سبحانه نشأتك ، ورباك وتعهدك ، وعلمك علوم الأولين والآخرين وفضَّلك على جميع العالمين .

قوله تعالى : { اقرأ وربك الأكرم } جاء بصيغة المبالغة حتى يشير إلى كثرة الكرم الإلهي على سيدنا رسول الله ، فهو صلى الله عليه وسلم مظهر الأكرمية الإلهية ولذلك نال مقام الأكرمية العظمى عند ربه جل وعلا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ، ولا فخر) الحديث كما في سنن الدارمي

قوله تعالى : { الذي علم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم }

ومن هذا نفهم مدى سعة علومه ومعارفه صلى الله عليه وسلم والأسرار التي أفاضها الله تعالى عليه ، لأن الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم علَّمه بواسطة القلم المعروف ما لم يعلم من قبل ، فكيف إذا كان واسطة التعليم جبريل الأمين عليه السلام ؟! حقاً إنها علوم فاقت علوم الخلق كلهم وأعجزتهم ولا يعلم حدها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه صلى الله عليه وسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض) أي : قد ملأ ما بين السماء والأرض ، ولا يلزم هذا ألا يزاحم غيره من المخلوقات المادية إذ إن الملائكة عليهم السلام أرواحهم علوية قائمة في أجسام لطيفة نورانية فلا يقاس أحد منها بأحد الأجساد المادية ، ألا ترى أنك إذا واجهت أنواراً متعددة إلى موضع واحد فإنها تتسع ولا تتزاحم ولا تتضارب ، فانطلق من هذا المثل التقريبي إلى فهم ما هو أعظم وأدق .

وكذلك فإن نور الشمس إذا طلع ملأ ما بين السماء والأرض ولا يتزاحم مع الماديات أيضاً ، ولا تظن أن الملائكة عليهم السلام أنوار مجردة ، بل هم أجسام لطيفة خلقها الله تعالى من نور فيجري عليها أحكام عالم النور اللطيف الرباني .

وفي رواية للبخاري المتقدم ذكرها أنه صلى الله عليه وسلم رجع إلى أهله وقال : (زملوني زملوني) .

أما في رواية مسلم[1] فقد قال صلى الله عليه وسلم : (دثروني دثروني) فنزل قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } .

قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } فقد أخبر سبحانه بالحال التي كان عليها صلى الله عليه وسلم ملاطفاً مؤانساً له صلى الله عليه وسلم وقد كان متدثراً أي ملتفاً بثوبه .

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان

قول السيدة عائشة في الحديث المتقدم : (فرجع بها إلى أهله يرجف فؤاده) أي لما اعتراه من المهابة والخشية بسبب نزول الوحي عليه ، وقد قال تعالى : { إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً } أي ثقيلاً في معناه على الجسد والروح ، ويظهر أثر ذلك على جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم فيلقى شدة عند نزول الوحي عليه ويحمرُّ وجهه ويتفصد جبينه الشريف عرقاً كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة [1].

قوله صلى الله عليه وسلم لخديجة : (لقد خشيت على نفسي) أي : خفت على نفسي أن لا أتحمّل ذلك العبء فأمرض ، وقال بعضهم : خاف صلى الله عليه وسلم على نفسه أن يُقضى عليه بأن لا يتحمَّل ذلك الثقل .

فقالت له أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها : (كلا والله لا يُخْزيكَ الله أبداً) أي فإن الله تعالى يحفظك ويمدك بالقوة ويبقي عليك صحتك كاملة .

---

[1] قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جَبينه ليتفصّد عَرَقاً)
أخرجه البخاري، ومسلم ، والترمذي ، واللفظ للبخاري .

وفي رواية مسلم قالت : (فَوَاللَّهِ لَا يُحْزِنُكَ اللَّهُ أَبَدًا) – لا يُحْزِنُكَ : بضم الياء – ويروى أيضاً بفتحها ، ويقال في لغة العرب : (حَزَنَه) و(أحزَنه) إذا أوقعه في الحزن ، والمعنى واحد .

والمعنى : فلا يوقعك الله في حزن فتخشى على جسمك أن تمرض أو يصيبك أذى ، ثم عللت ذلك رضي الله عنها بقولها : (إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق) .

أي فإنك يا رسول الله منبع الخصال النبيلة والأخلاق والفضائل فكيف يُخزي الله مَن هذا شأنه وصفاته ؟!

فكان صلى الله عليه وسلم يصل أرحامه قبل أن ينزل عليه الوحي ، وصلة الأرحام تدل على خيرية نفس المُواصل إذ إنه يصلهم وإن قطعوه ، وأما من واصل مَن وصله من أرحامه فقط فلا يسمى فعله مواصلة بل هو مقابلة ومكافأة أي قابل صلتهم له بمواصلته لهم ، وفي الحديث :

(ليس الواصل بالمكافئ) [1] .

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الأدب

وأما المواصلة التي رتب عليها الشارع فضلاً وأجراً كبيراً وخيراً كثيراً فهي أن يصل الإنسان مَن قطعه ، ولا يجوز للمؤمن أن يقطع رحمه ولو كان هذا الرحم فاسقاً إلا إذا خاف من مواصلته أن يسري فسقه إليه ، فإنه إذا واصله رأى من المنكر أو سمعه ، وإما إذا كان فسقه مقتصراً على نفسه فلا يجوز قطعه بل يجب صلته ونصحه ، وأما إذا كان يستعين بعطائك على أمور فسقه فأمسك عين المال وصله بالغذاء والكساء وهكذا .

قولها رضي الله عنها : (وتحمل الكَلَّ) أي وتحمل الكل على غيره وهو الضعيف الذي لا يستطيع أن يحمل نفسه فهو صلى الله عليه وسلم يعينه ويسعفه ويدخل في هذا الوصف العبد والعاجز .

(وتَكسِب) وفي رواية (وتُكْسب المعدوم) أي تُكسِب المال المعدوم أي الفقير ، فكان صلى الله عليه وسلم يعين الفقير الذي عُدِم المال .

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه صحيح الإمام مسلم :

وَأَمَّا قَوْلهَا (وَتَقْرِي الضَّيْف) فَهُوَ بِفَتْحِ التَّاء ، قَالَ أَهْل اللُّغَة : يُقَال : قَرَيْت الضَّيْف أَقْرِيه قِرًى بِكَسْرِ الْقَاف ، وَيُقَال لِلطَّعَامِ الَّذِي يُضَيِّفهُ بِهِ قِرًى .

وَأَمَّا قَوْلهَا (وَتُعِين عَلَى نَوَائِب الْحَقّ) فَالنَّوَائِب جَمْع نَائِبَة وَهِيَ الْحَادِثَة ، وإِنَّمَا قَالَتْ : (نَوَائِب الْحَقّ) لِأَنَّ النَّائِبَة قَدْ تَكُون فِي الْخَيْر وَقَدْ تَكُون فِي الشَّرّ

قَالَ الْعُلَمَاء رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ : مَعْنَى كَلَام خَدِيجَة رَضِيَ اللَّه عَنْهَا :

إِنَّكَ لَا يُصِيبك مَكْرُوه لِمَا جَعَلَ اللَّه فِيك مِنْ مَكَارِم الْأَخْلَاق وَكَرَم الشَّمَائِل . وَذَكَرَتْ ضُرُوبًا مِنْ ذَلِكَ ، وَفِي هَذَا دَلَالَة عَلَى أَنَّ مَكَارِم الْأَخْلَاق وَخِصَال الْخَيْر سَبَب السَّلَامَة مِنْ مَصَارِع السُّوء .

وَفِيهِ تَأْنِيس مَنْ حَصَلَتْ لَهُ مَخَافَة مِنْ أَمْر وَتَبْشِيره وَذِكْر أَسْبَاب السَّلَامَة لَهُ .

وَفِيهِ أَعْظَم دَلِيل وَأَبْلَغ حُجَّة عَلَى كَمَال خَدِيجَة رَضِيَ اللَّه عَنْهَا ، وَجَزَالَة رَأْيهَا ، وَقُوَّة نَفْسهَا ، وَثَبَات قَلْبهَا ، وَعِظَم فِقْههَا . وَاَللَّه أَعْلَم .

قَوْلهَا : (وَكَانَ اِمْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّة)

مَعْنَاهُ صَارَ نَصْرَانِيًّا ، وَالْجَاهِلِيَّة مَا قَبْل رِسَالَته صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُمُّوا بِذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ فَاحِش الْجَهَالَة ، وَاَللَّه أَعْلَم .

قَوْلهَا : (وَكَانَ يَكْتُب الْكِتَاب الْعَرَبِيّ وَيَكْتُب مِنْ الْإِنْجِيل بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّه تَعَالَى أَنْ يَكْتُب) .هَكَذَا هُوَ فِي مُسْلِم : (الْكِتَاب الْعَرَبِيّ وَيَكْتُب بِالْعَرَبِيَّةِ) . وَوَقَعَ فِي أَوَّل صَحِيح الْبُخَارِيّ (يَكْتُب الْكِتَاب الْعِبْرَانِيّ فَيَكْتُب مِنْ الْإِنْجِيل بِالْعِبْرَانِيَّةِ) وَكِلَاهُمَا صَحِيح . وَحَاصِلهمَا أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَة دِين النَّصَارَى بِحَيْثُ إِنَّهُ صَارَ يَتَصَرَّف فِي الْإِنْجِيل فَيَكْتُب أَيّ مَوْضِع شَاءَ مِنْهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ إِنْ شَاءَ وَبِالْعَرَبِيَّةِ إِنْ شَاءَ . وَاَللَّه أَعْلَم .

قَوْله : (هَذَا النَّامُوس الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

(النَّامُوس) بِالنُّونِ وَالسِّين الْمُهْمَلَة وَهُوَ جِبْرِيل صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ أَهْل اللُّغَة وَغَرِيب الْحَدِيث : النَّامُوس فِي اللُّغَة صَاحِب سِرّ الْخَيْر .

قَوْله : (يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا)الضَّمِير (فِيهَا) يَعُود إِلَى أَيَّام النُّبُوَّة وَمُدَّتهَا

وَقَوْله : (جَذَعًا) يُعْنَى شَابًّا قَوِيًّا حَتَّى أُبَالِغ فِي نُصْرَتك .

قَوْله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ) ؟

هُوَ بِفَتْحِ الْوَاو وَتَشْدِيد الْيَاء هَكَذَا الرِّوَايَة .

قَوْله : (وَإِنْ يُدْرِكنِي يَوْمك) أَيْ وَقْت خُرُوجك .

قَوْله : (أَنْصُرك نَصْرًا مُؤَزَّرًا)هُوَ بِفَتْحِ الزَّاي وَبِهَمْزَةٍ قَبْلهَا أَيْ قَوِيًّا بَالِغًا .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال : حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال : أخبرنا شيب عن الزهري قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادَّ فيها سفيان وكفار قريش وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عني كذباً لكذبت عنه .

ثم كان أول أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبْله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال – أي : أبو سفيان - : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة ، قال فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه ، قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : (اعبدوا الله وحْده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة) .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت : أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت : أن لا قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ،

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن لِيَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك : أيرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ،

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنه عليك إثم الأريسين .

{ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون }) .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا : [لقد أَمِرَ أَمرُ ابن أبي كبشة ، إنه يخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام].

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فأغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ .

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم عليّ ، وقال : [إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت] ، فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل) . اهـ

لقد أورد البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الوحي لما ذكر أوصاف الرسول الموحى إليه صلى الله عليه وسلم .

قوله : (وكان في إيلياء) أي في مدينة بيت المقدس ، وتسمى أيضاً بيت القدس وبيت الله ، لما لها من شأن واعتبار وفضل عند الله تعالى ، وهي ثالث الحرم وأولى القبلتين .

وكان هرقل قد ذهب من حمص التي كانت وقتئذ عاصمة ملكة الروم ، ذهب منها إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه شكراً لله تعالى على أن غلَّبه على جيوش الفرس الذين نزلوا بمملكة الروم قتلاً وخراباً .

وسبب ذلك أن كسرى ملك الروم وكان قد استبطأ قائد جيشه الذي أرسله لمحاربة الروم فهدده وتوعده بالقتل إن هو عاد إليه فبلغ ذلك قائد الجيش فخاف من بطش كسرى فراح وتعاهد مع الروم وكف عن قتالهم وبقي وعدد من جيشه عندهم ، ولقد اتفق أن وصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي فرأى دحية هرقل في بيت المقدس .

وكان هرقل يتمتع بالدهاء والنباهة وكان قد درس التوراة والإنجيل واطلع فيها على أوصاف رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، فأراد أن يتعرف إلى أوصاف سيدنا رسول الله وهل هي منسجمة ومتفقة فيما جاء في الكتب الإلهية السابقة ، وهل دعوة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم متفقة مع ما دعا إليه الرسل قبله وهكذا ، فدعا بمن كان في بيت المقدس من العرب من بلد رسول الله مكة المكرمة ، واتفق أن كان فيها أبو سفيان وجماعة معه يبلغ عددهم ثلاثين رجلاً منهم أبو سفيان - وكان وقتئذ مشركاً لم يؤمن برسول الله بعد وقد قدم بيت المقدس للتجارة - ، وقد وقع هذا في الفترة التي هادنهم فيها رسول الله - أي عقد الهدنة بينه وبين مشركي مكة ، وهو ما يعرف بصلح الحديبية الذي اتفق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مشركي مكة أن لا يكون هناك حرب بينهما إلى ما بعد عشر سنين ، إلا أن كفار قريش نقضوا العهد بعدها فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتَح مكة - .

وسأل هرقل جماعة العرب : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، وذلك لأنه يلتقي مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً في الجد الرابع وهو عبد مناف .

ولما جلس أبو سفيان مجلس المسؤول عن سيدنا رسول الله ولم يكن قد آمن به قال : [والله لولا الحياء من أن يأثروا علي الكذب لكذبت عنه] ، ولذلك التزم الصدق في جوابه لهرقل خشية أن يشاع بين العرب أن أبا سفيان يكذب .

وقوله : [لكذبت عنه] تضمن معنى الخبر أي : لأخبرت عنه خبراً كاذباً ، ثم سأل هرقل أبا سفيان : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، أي ذو نسب عال شريف لا أعلى ولا أشرف منه ، وإذا افتخر المرء بنسبه وحسبه فإن النسب هو خير الآباء وشرفهم ، وأما الحسب فهو اتصاف الآباء بالمكارم والفضائل .

ولقد اجتمع النسب والحسب على أكمل الوجوه في بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جده عبد المطلب سيداً في قومه ، واشتهر بإغاثة الملهوف وإعانة الفقير ونصرة المظلوم .

قال هرقل : وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، أي : لقد جرت عادة الله تعالى أن يبعث الرسل في نسب شريف في قومهم ، لا في نسب دنيء وضيع ، وذلك لأن شرف وعلو النسب والحسب في المرء له شأنه واعتباره ، كما أن من وراء ذلك حكم منها :

أن يكون المرء موضع ثقة الناس فيه ، وله في قومه المكانة والاحترام ، فإذا أخبرهم صدقوه ، وإذا دعاهم أجابوه ، ولو بعث من نسب دنيء لما كان له في نفوس قومه تلك الثقة والمكانة ، ولربما عيّروه وانتقصوه بدناءة حسبه ونسبه .

ثم سأله : [فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم] ؟

فسأل هرقل أبا سفيان : هل أغنياء الناس ومترفوهم في الدنيا يتبعونه أم الفقراء الذين ليس لهم في الدنيا مال ولا جاه ؟

وذلك لأن تكبر المترفين والأغنياء وبطرهم في الدنيا يحول بينهم وبين الاستجابة لدعوة الرسل عليهم السلام وقبول الحق والإذعان له ، لأنه يخالف أهواءهم وشهواتهم ، ولو أن الحق وافق أهواءهم لاتبعوه موافقة لأهوائهم ، لا لأنه الحق .

وما درى هؤلاء أن صلاحهم في الدنيا والآخرة وسعادتهم في الدنيا والآخرة لا يُنالان إلا باتباع ما جاء عن الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم والعمل به ، لأن الذي خلق الخلق هو أعلم بما يصلحهم ويسعدهم ، ولذلك شرع لهم شرعاً فيه الصلاح والسعادة لمن عمل به .

وقد قال تعالى : { وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون } .

أي جعلنا في كل قرية – وهي المدينة العامرة – مترفيها وفساقها وأكابرها ليفسدوا فيها ، وما علموا أن فسادهم وفسقهم لا يعود شره ووباله إلا عليهم .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيغ عنه) [١] .

أي : حتى يكون ميله النفساني متابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من شريعة محكمة مصلحة مسعدة لمن تمسك بها ، وإلا فمن أتبع نفسه هواها فستهوي به في المهالك .

ثم سأله : [هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه] ؟

أي هل دخل أحد في دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به ثم كره دين رسول الله واستحسن ديناً غيره ودخل فيه ؟

فقال أبو سفيان : لا ، فقال هرقل : [وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب] . أي حين تتذوق حلاوته القلوب .

---

[١] قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وخرجته الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده: ولا يزيغ عنه

واعلم أن الإيمان إذا دخل القلب وتعشقه القلب فإن له حلاوة يتذوقها القلب ، فإذا ذاق المؤمن تلك الحلاوة بقلبه فلا يمكن أن يرتد عن دينه إلى غيره ، لأن دين الإسلام هو الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء والرسل وارتضاه الله تعالى لعباده كلهم ، قال جل وعلا : { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } ، وأما من آمن ولم يدخل الإيمان قلبه ولم يتعشق به ولم يجد حلاوته بل تذوق الإيمان من أطراف قلبه فربما يتعرض لفتنة تخرجه من الدين ، نسأل الله العافية . آمين .

وكما يبش وجه الإنسان إذا رأى ما يسره أو سمع ما يفرحه فكذلك القلب يفرح ويبش إذا استحكم فيه الإيمان ووجد حلاوته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً) .[١]

وطعم الإيمان هو حلاوة يجدها المؤمن في قلبه كما قال صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) .[٢]

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

---

[١] صحيح مسلم كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب الصلاة

[٢] صحيح البخاري وصحيح مسلم كتاب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

- ناقلاً قول هرقل لأبي سفيان – [بم يأمركم ؟ قال : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نترك ما يعبد آباؤنا] – أي من عبادة الأوثان والأصنام والنجوم والكواكب – [ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف] .

فلقد أمرهم صلى الله عليه وسلم بتوحيد الله تعالى وهذا يشمل قضايا الاعتقاد الإيمانية ، ثم أوصى بالأمور العملية وأولها الصلاة .

وفي رواية للبخاري : (يأمرنا بالصلاة والصدقة وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ) [1] .

وقد تطلق الصدقة على الزكاة المفروضة كما في قوله تعالى : { إنما الصدقات للفقراء والمساكين } الآية ، وقد تطلق على التبرعات وهذا ما يعرف بالقرينة .

وأما العفاف فهو التعفف عن المحرمات بتركها ، وأما الصلة فهي صلة الأرحام وهم الأقارب سواء في ذلك الأرحام المحارم أو غير المحارم كما عليه جمهور العلماء ، والأرحام المحارم هي الأرحام التي يحرم على الإنسان التزوج منها فهي حرمة مؤبدة كالجدة والعمة والخالة والأخت وبناتها وبنات الأخ .

وأما الحرمة المؤقتة فهي التي يحرم على الإنسان التزوج منها حرمة مؤقتة لسبب ، فإذا زال السبب زالت الحرمة ، فيحرم أن يتزوج أحد زوجة غيره إلا إذا مات زوجها أو طلقها ، فيجب على المؤمن أن يواصل أرحامه سواء كانوا محارم أو لا ، إلا أن مواصلة كل رحم على حسبه ، فمواصلة العمة أو الخالة بزيارتها ومساعدتها إن كانت في فاقة ، ومواصلة الرحم الأجنبي - كبنت العم والعمة والخالة - مواصلتها أن تسأل عنها وتتفقد أحوالها وتصلها بالمال إن كانت محتاجة وهكذا .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب

والرحم الأجنبي هي الرحم التي يحرم على الإنسان النظر إليها والخلوة بها ويحل له التزوج بها .

واعلم أن صلة الرحم فرض على الإنسان في شريعة الله تعالى ، وأحياناً ما يعبّر العلماء عن ذلك بالواجب ، ولا يجوز للإنسان أن يساعد أو يتصدق على غير أرحامه ، وأرحامه بحاجة وفقر ، لأن الله تعالى سيسأله عن أرحامه أولاً كما قال تعالى : { واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام } أي : واتقوا الله في أرحامكم بِصلتهنّ كما شرع الله تعالى { إن الله كان عليكم رقيباً } الآية.

وإن الصدقة على الرحم الفقير تعتبر صدقة وصلة أيضاً وللإنسان بها أجران ، ومن حرم أرحامه صدقته وهم بحاجة إليها فقد ارتكب إثماً كبيراً مضاعفاً لأنه تسبب أيضاً في حرمان ذلك الرحم صدقات الناس أيضاً لأنهم لا يتصدقون عليه ظناً منهم أن فلاناً الغني من أقاربه يرأف بهم ويقوم بما يلزمهم ، وهذا ما وقع فيه كثير من الأغنياء فليتقوا الله في أرحامهم وليحسنوا إليهم ، ولا يزعم أحدهم أن أرحامه يحسدونه أو يحقدون عليه فإن المعاملة مع الله سبحانه وتعالى كما بيَّن سبحانه عن صفة أهل الجنة قولهم لمن يحسنون إليهم :

{ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً } .

وهكذا بعد أن استقرأ هرقل أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم وقرنها مع ما يعلم من صفات الرسل قبله والمنزلة في التوراة والإنجيل ووجدها منسجمة متفقة مع أوصاف الرسالات الإلهية ، ونظر فيما سمع عنه صلى الله عليه وسلم ورأى أنها أوصاف قيِّمة عالية تتفق مع الشرائع الإلهية وتتضمن الصلاة والزكاة والصلة والعفاف قال : [إن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين] أي : ستنتشر دعوة هذا الرسول الكريم وتعم مملكته الأرض بما فيها مملكة هرقل ، وقد علم هذا هرقل من اطلاعه على الكتب السماوية السابقة التي جاء فيها أنه سيظهر نبي في آخر الزمن واسمه أحمد ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه ستعم رسالته العالم وتنتشر مملكته في الأرض كلها .

ثم قال : [ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه] أي بعدما عرف أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرف أنه يجب عليه أن يسعى إليه ويسلم على يديه إلا أنه توقف عن ذلك بقوله : [لو أني أخلص إليه] أي أصل إليه سالماً دون معاداة قومي لي [لتجشَّمت لقاءه] يعني لتكلفت الوصول إليه مبايعاً له على الإسلام .

فلقد خاف من أذى قومه لأنهم كانوا على الدين النصراني إلا أنه كان مخطئاً في تقدير هذا إذ غاب عنه قوله صلى الله عليه وسلم في الكتاب : (أسلم تسلم) أي تأمن من أذى قومك وغيرهم .

قال هرقل : [ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه] يعني لجعلت نفسي خادماً لرسول الله حتى أغسل قدميه وأعتبر ذلك شرفاً وعزاً لي .

أو أن المعنى : لغسلت رأسي وجسمي من غسالة قدميه صلى الله عليه وسلم متبركاً بذلك .

فتأمل أيها العاقل في كلام هرقل هذا - وهو وقتئذٍ ملك الروم – كلام مَن عرف الحق إلا أنه لم يعترف به أي أنه لم يذعن وينقَد لِما عرف خوفاً من أذى قومه وأن يعزلوه عن الملك .

وإذا كان هرقل هذا قد تمنى وودَّ لو أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل نفسه خادماً له صلى الله عليه وسلم بل خادماً لقدميه الشريفتين وأراد أن يتبرك بغسالة قدمي النبي الشريفتين صلى الله عليه وسلم ، فالأجدر والأحرى بكل مؤمن أن يتمنى ويودَّ ذلك بدافع إيمانه ومحبته لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتسارعون لنيل شرف خدمته صلى الله عليه وسلم ويتسارعون ويتدافعون للتبرك بما انفصل منه من نخامة وشعر وأظفار ، كما دلَّ على ذلك وقائع كثيرة رواها المحدثون في كتبهم[١] ، ولو كنت منهم أيها المؤمن لفعلت كما فعلوا .

---

[١] وقد ذكر الشيخ الإمام رضي الله عنه بحث التبرك مع أدلته في آخر كتابه الشمائل فارجع إليه تجد ما ينفعك بإذن الله تعالى .

جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث صلح الحديبية قال :

[ثم إن عروة بن مسعود – الذي جاء وقتئذٍ وسيطاً عن المشركين في مكة – جعل يرمق النبي بعينيه قال : فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم – أي الصحابة – فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم – رسول الله صلى الله عليه وسلم – بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له صلى الله عليه وسلم .

فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه – في مكة – فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت – أي ما رأيت – ملِكاً قَطُّ يعظِّمه أصحابه مثل ما يُعظِّم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم – أي ما تنخم – نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها] .... الحديث .

فقد عرف هرقل الحق لكن لم يعترف به ولم يذعن لِما عرف كِبراً منه وحرصاً منه على الملك وخوفاً من أذى قومه ، وكم من أناس عرفوا الحق ولم يعترفوا به ، بل إن أعظم سبب للكفر وعدم الإذعان والاعتراف بالحق هو الكبر والتعالي ، ألا ترى إلى قوله تعالى في إبليس عين الكفر :

{ أبى واستكبر وكان من الكافرين } ، وقوله تعالى في قوم فرعون بعدما ظهر لهم صدق سيدنا موسى عليه السلام ورأوا الآيات والمعجزات : { وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً } أي : أنكروا الحق ولم يعترفوا به بعد أن ظهر لهم تكبراً وعلواً .

وقال سبحانه في الكافرين : { إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه } .

وقال جل وعلا : { يعرفونه كما يعرفون أبناءهم } أي يعرفون أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كمعرفتهم بأبناءهم أنهم أبناؤهم وليسوا أبناء غيرهم ، إلا أنهم لم يعترفوا بما عرفوا ، وجحدوا الحق كبراً وعناداً .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال : كتاب الإيمان ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (بني الإسلام على خمس)

وهو قول وفعل ، ويزيد وينقص .

قال الله تعالى : { ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم } { وزدناهم هدى } .

باب : دعاؤكم إيمانكم لقوله عز وجل :{ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم } .
ومعنى الدعاء في اللغة : الإيمان . اهـ

ثم ذكر بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان) . اهـ

قول الإمام البخاري رضي الله عنه : [الإيمان قول وعمل] وهذا ما عليه جماهير السلف الصالح رضي الله عنهم ، ونُقِلَ عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله : [الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص] . [1]

أي : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

فالإيمان قول أي : النطق بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وعمل يشمل العمل القلبي وهو الاعتقاد ، والعمل الخارجي وهو العمل الصالح .

فقد قالوا : [الإيمان اعتقاد بالجَنَان] – أي بالقلب ، [وتصديق باللسان] – أي : النطق بالشهادتين – [وعمل بالأركان] – أي بأعضاء الإنسان وأطرافه – كالصلاة والزكاة والحج ومناسكه وهكذا .

---

[1] انظر فتح الباري لابن حجر ١ / ٤٧

ومن أخلَّ بقضايا الإيمان الاعتقادية القلبية كمن أنكر الإيمان بالملائكة مثلاً أو لم يؤمن بكتب الله تعالى النازلة على الرسل مثلاً فهو كافر خارج عن مِلَّة الإسلام .

ومن حقق أركان الإيمان الاعتقادية ولكن أخلَّ ببعض قضايا الإيمان العملية بأن ترك الصلاة مثلاً أو الصيام فهو مؤمن فاسق أي : ناقص الإيمان ، ولا يكفر إلا إذا استحلَّ بعض قضايا الإيمان العملية بأن لم يعتقد فرْضية الصلاة أو فرضية الصيام وهكذا ، أما إذا اعتقد فرضيَّتها وتركها كسلاً فهو ناقص الإيمان ، فاسق .

ولا يقال عن أحد إنه مؤمن كامل الإيمان في الدنيا وآمن من العذاب في الآخرة إلا إذا تحقق بقضايا الإيمان كلها الاعتقادية والعملية والقولية والخلقية والأدبية ، وهذا يعني أنه تحقق واستوفى جميع شعب الإيمان التي قال فيها صلى الله عليه وسلم [1] :

(الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها) – أي : آخرها – (إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) .

---

[1] كما في صحيح مسلم كتاب الإيمان

مع أن الحياء خُلق يتخلَّق به الإنسان ، فواجب على المؤمن إذاً أن يحقق جميع شعب الإيمان حتى الخلقية والأدبية منها حتى يكمل إيمانه ويكون من الأبرار ، ثم يلتحق بمراتب المقربين إن هو اشتغل بالنوافل المقربة إلى الله تعالى .

ومن مات ولم يكمل له إيمانه بأن أخلَّ ببعض شعب الإيمان ولو الخلُقية منها فهو ممنوعٍ من دخول الجنة حتى يطهر من صفة النقص التي فيه بأن يمر على برازخ الآخرة ويلاقي من الأهوال والشدائد على حسب شدة نقصه وعيوبه فإن هو طهر وطاب دخل الجنة ، وأما إذا لم يطهر بأن كان نقصه كبيراً وذنوبه شديدة مستحكمة ولم ينل من الشفاعات ما ينقذه ، فلابد له من غمسة في جهنم تطول مدتها على حسب نقصه وذنوبه حتى إذا طهر وطاب دخل الجنة ، لأن الجنة لا يدخلها إلا من كان طاهر النفس زكياً طيباً ، كما قال الله تعالى : { طبتم فادخلوها خالدين } .

وقال جل وعلا : { الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون } .

فلا يكمل إيمان المؤمن ولا يصير أهلاً لدخول الجنة إلا إذا تحقق بشعب الإيمان كلها ، ومنها حسن الخلق والحياء وكمال الأدب وطيب المعاشرة ولين الجانب ، ومن أهمل خصلة منها منعته دخول الجنة حتى يلاقي من الشدائد ما يحمله على التحقق بها ، ألا ترى – وهذا من باب ضرب المثال - إلى الصبي إن كان سيِّئ الأدب قليل الحياء فإنك تنصحه وترغبه في حسن الخلق والحياء والأدب ، فإن هو أعرض ولم ينزجر فإنك ستعاقبه بضربٍ مشروع أو تمنعه عن تحقيق بعض رغباته ، كل ذلك لتحمله على التخلي عن صفات النقص والعيب والتحقق بصفات الكمال والجمال ، فتكون العقوبة بحقه تطهيراً وتزكية فافهم .

فلا تدع أيها الإنسان كمال نفسك موقوفاً على الأهوال والشدائد في الآخرة بل جاهد نفسك في الدنيا وحقق كمالها وأدبها في الدنيا حتى تَطهر وتطيب.

ومن شعب الإيمان أيضاً : حسن الخلق ، فقد روى أبو داود في سننه [١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) أي : مع أهله وأولاده وأصحابه وجيرانه وجلسائه .

---

[١] في كتاب السنة

وفي مسند الإمام أحمد[1] عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) .

أما قضايا الإيمان الاعتقادية فهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الحب في الله والبغض في الله فهما أيضاً من أعمال القلوب ، أي : أن تحب المؤمن لأجل الله بسبب إيمانه وصلاحه ، لا لماله ومنصبه ووجاهته الدنيوية ، وكذلك أن تبغض الكافر لأجل الله بسبب كفره وفجوره وليس لأغراض دنيوية .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

(أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله)[2].

وروى أبو داود[3] عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(من أحبَّ لله وأبغضَ لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) .

---

[1] ٢٤٣٦١

[2] انظر مصنف ابن أبي شيبة ومسند الطيالسي

[3] في سننه في كتاب السنة

ويجب عليك أيها المؤمن بمقتضى إيمانك بالله أن تحب جميع المؤمنين ، لأنهم مؤمنون بالله تعالى ، فتحبهم لإيمانهم وتقواهم لا لما ينالك من خيراتهم وعطائهم ، بحيث لو وقع أحدهم في ضائقة ومنعك عطاءه أبغضته ، فتكون بذلك قد أحببته لماله وعطائه لا لإيمانه وصلاحه ، وعار عليك أن تفعل ذلك ، فإن النفس الكريمة لا ترضى الهوان ، فكن ذا عفة وكرامة ، وأبغض المؤمن الفاسق من ناحية فسقه ومعصيته فقط لا من جميع النواحي والاعتبارات ، إذ إن كل مؤمن معرّض للخطأ والخطيئة ، فإن لم يتب فأبغض منه ناحية معصيته فقط ، وأبغض الكافر لكفره وظلمه لنفسه .

وإذا أعطيت مؤمناً من مالك شيئاً فأعطه إياه حباً في الله تعالى ، ولا تبغِ من عطائك السمعة والرياء أو حب الظهور والتعالي عليه أو لمنفعة لك عنده ،

وإذا منعت أحداً من عطائك فليكن ذلك لأجل الله لا بسبب بخل وشح نفس ، كما لو منعت أحداً من عطائك لأنك تعلم أنه سينفقها في معصية الله ، لكن لا تمنع أهله وعياله ، بل قدم له ولهم ما يحتاجونه من طعام وشراب ومتاع وغيره ، واعلم أن الصدقة غير المفروضة تجوز على غير المسلم إن علمت حاجته وفاقته ، إلا إذا أيقنت أنه سيضيعها في معصية الله تعالى ، أما الزكاة فلا تجوز إلا على المسلمين ، ولا يشترط فيهم أن يكونوا من أهل التقوى والصلاح الكامل ، بل طالما أنهم مسلمون فعليك أن تواصلهم ما استطعت ، وكذلك أن تنصح من استنصحك حباً في الله لا للتشهير والفضيحة بل حباً فيه وجلباً للخير له ، ولا يكمل لمؤمن إيمانه حتى يتحقق بتلك الخصال كلها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (فقد استكمل الإيمان) .

واعلم أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، وليعلم المصر على المعصية أن إيمانه على خطر إذ إنه في نقصان مستمر ما دام هو على المعصية مصراً ، وربما أدى به إصراره إلى زوال الإيمان ، ونسأل الله العافية .

وإن المؤمن يجد من قلبه أن إيمانه يزيد بطاعة الله ، ويجد ذلك لمَّا يحضر مجالس الذكر والعلم والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيخشع ويجد حلاوة في قلبه لا يجدها لما يكون منهمكاً في أعمال الدنيا وتجارتها ، كل ذلك يدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، ومن لم يجد في قلبه زيادة إيمان فإن إيمانه على نقص ، فليبادر إلى التوبة وفعل الطاعات . وقد قال تعالى :

{ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر } .

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لمن يرى من إخوانه :

(اجلس بنا نؤمن ساعة) [١]– أي : اجلس معي حتى نزداد إيماناً – فيجلسان فيذكران الله تعالى بعَظَمته وكبريائه وآياته وكمالاته جل وعلا ، ويحمدانه أي : على نعمة الإيمان فيزدادان إيماناً .

[١] انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان

ولقد كان مجلس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس صفاء ونقاء وارتقاء ، بحيث يرتقي أصحابه رضي الله عنهم إلى مقام المعاينة في قضايا الإيمان ، حتى قال قائلهم :

(نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكِّرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين) [1] فما أعظم إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد نبه سبحانه المؤمنين أن لا يغفلوا عن ذِكْره جل وعلا حتى لا يضعف إيمانهم فقال عز من قائل : { واذكر ربك في نفسك } – أي : بمراقبتك لله تعالى في سائر أحوالك – { تضرعاً وخيفةً } – أي رجاء رحمته وخوفاً من عذابه – { ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين } ، أي لا تغفل عن ذكر الله تعالى .

وما دام المؤمن في الذكر والتذكر فهو في حرز الله وحصانته ، فإذا غفل خرج من الحصن ، وتسلط عليه العدو وهو الشيطان ، وفي الحديث :

(كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى) [2] .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب التوبة

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الأمثال

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا عِلم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أمَّا بعد : بالسَّند المُتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيمَ بن المُغيرة بن بَردِزبه الجُعفي البخاري رضي الله عنه ، قال :

بَاب أُمُورِ الْإِيمَانِ ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ } .

وَقَوْلِهِ سبحانه : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } الْآيَةَ .

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الإيمان بِضعٌ وسِتُّونَ [١] شُعبةً ، والحياء شعبة من الإيمان) . اهـ

[١] وفي رواية عند مسلم : (بضع وسبعون) .

قول البخاري رضي الله عنه : (باب أمور الإيمان) يعني بذلك شعب الإيمان

وعندما يذكر البخاري رضي الله عنه في تراجمه قضايا الإيمان يريد بذلك ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان ، وما فهموه من الإيمان .

لفظة [البِرّ] في الأصل تُطلق على الخير الكثير لأنها مشتقة من البَر – بفتح الباء – وهو الساحة الواسعة ، وأما الصغيرة فلا تسمى بـ البر .

ولمَّا كان الإيمان هو الخير الواسع الجامع لكل خير سمَّاه سبحانه في الآية بـ البِر ، وهذا قوله تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) الآية .

ثم ذكر سبحانه أمهات شعب الإيمان فقال جل وعلا :

{ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } .

فالبر هو الخير الواسع المتنوع ، ولا خير بهذا المعنى إلا في الإيمان الواسع الشُّعب .

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

(يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ) - يعني من إيمان ، إذ لا خير إلا من باب الإيمان ويدل عليه ما قاله الإمام البخاري رضي الله عنه بعد هذه الرواية - : قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ أَبَانُ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا أَنَسٌ، عَنِ النَّبِيِّ :(مِنْ إِيمَانٍ) مَكَانَ (مِنْ خَيْرٍ) .

فيخرجون بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في رواية المسند لحديث الشفاعة :

(فَيُقَالُ لِي: أَخْرِجْ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَأُخْرِجُهُمْ) ... الحديث

قوله تعالى : { ولكن البر من آمن بالله } أي صدَّق تصديقاً جازماً لا يقبلُ الشكَّ والارتياب ، معتقداً عقيدةً لا تنفكُّ عن قلبه أنَّ دين الإسلام الذي جاء به سيدنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو الدِّينُ الحقُّ الذي أظهره الله تعالى على سائر الأديان قبله .

وإن شأن المؤمنِ الحق أن يعتقد أن دينه دين الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لجميع خلقه ، ومن لم يسلم لله تعالى قلباً وقولاً وعملاً فليس بمؤمن ، قال تعالى :

{ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين } .

ومن مقتضيات الإيمان القاطع الجازم أن لا ينتاب صاحبه أدنى ريبٍ أو شكٍ في قضايا الإيمان لقوله تعالى : { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون } .

ولو اجتمع على هذا المؤمن أهل الأرض كلهم ليشككوه أو يدخلوا إليه الارتياب في قضايا الإيمان لما تأثر بهم ولبقي مؤمناً صادقاً لم يتزحزح .

كما لو كان الزمن نهاراً وأنت ترى ذلك وتحس به واجتمع عليك جمع كبير من الناس ليقنعوك أن الوقت ليل لَمَا صدقتهم ، ولأعرضت عنهم ، لأنك مؤمن أن الوقت نهار ، تبصره وتحس به .

وهكذا ينبغي أن يكون الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم جازماً قاطعاً في أعلى مراتب الجزم والتصديق ، وإلا فلا يُقْبَل من صاحبه ، وذلك لأنَّ الإنسان إذا كان يصدَّق ويؤمن باليقينيات المسلَّم بوجودها كالشمس والقمر مثلاً فيجب عليه أن يكون بوجود خالقها وموجدها أشدَّ تصديقاً وإيماناً ويقيناً لأن العاقل إذا رأى بناءً فلا يحاكم عقله أبداً ولا يشكُّ أبداً بوجود الباني الذي بنى البناء ، بل هو بوجود الباني أشدُّ تصديقاً ويقيناً من وجود المبنى وإن لم يرَ الباني .

قوله تعالى : { من آمن بالله واليوم الآخر } : وهذا يعني أنَّ عالم الدنيا هو اليوم الأول الذي يأتي على الإنسان ، وهو يوم له بداية ونهاية ، وقد حوى أياماً معروفةً بليلها ونهارها ، وهي أيام متوالية ، وأما اليوم الآخر فهو يوم له أول ولا انتهاء له ، وليس بعده يوم لأنه آخر الأيام ، ولأنه يوم عقيم لا يلد غيره .

قال الله تعالى : { ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم } .

قوله تعالى : { ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة } فيجب الإيمان بملائكة الله تعالى ، وهم أجسام نورانية لطيفة خلقهم الله تعالى لعبادته وتنفيذ أوامره وهم على مراتب وأصناف .

وقوله تعالى : { والكتاب } أي جنس الكتاب ، ويشمل هذا جميع الكتب الإلهية النازلة على رسل الله تعالى صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، فيجب الإيمان بأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، والصُّحف على إبراهيم عليه السلام ، والزبور على داود عليه السلام ، والإنجيل على عيسى عليه السلام .

وما من رسول إلا وقد أنزل الله تعالى عليه كتاباً أو صحفاً جامعة ، وأعظمها وأجمعها القرآن النازل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن النصارى فرقة ادَّعت أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول ، لكنَّهُ مرسل للعرب فقط وليس لغيرهم من الناس ، وهذا كلام مردود عليهم باطل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى أن يقول : { قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } فهو على زعمهم إذاً رسول يكذب على الله !! سبحانك هذا بهتانٌ عظيم ، إذ كيف يصحُّ لرسولٍ أن يكذب على الله تعالى ؟!

وقد أرسل الله تعالى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ،

قال جل وعلا : { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً } .

وقال تعالى : { قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (والذي نفس محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار) .

قوله تعالى : { وآتى المالَ على حُبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون } .

فذكر سبحانه الأمور العملية بعد أن بيَّن الأمور الاعتقادية .

قوله تعالى : { وآتى المال على حبه } ويحمل هذا على ما زاد على الزكاة المفروضة من صدقات ونوافل ، بدليل أنه سبحانه وتعالى قال في الآية نفسها:

{ وآتى الزكاة } أي المفروضة .

قوله تعالى : { وآتى المال على حبه } أي على حبه للمال فينفق من المال المحبوب عنده ، ويشمل هذا أيضاً الأمور العارضة التي توجب على المؤمن التصدق ولو كان قد أدى زكاة ماله ، ومن ذلك إغاثة الملهوف ، وإعانة المضطر ، ويكون هذا فرضاً عارضاً عليه بسبب الحاجة .

وهذا هو المعنى المراد في الحديث الوارد عنه صلى الله عليه وسلم :

(إن في المال حقاً سوى الزكاة)[1] وهذا الحق الواجب بسبب الضرورة العارضة .
وقوله تعالى : { وآتى المال على حبه } ويزداد حب الإنسان للمال حال شبابه وصحته لأنه في تلك الحالة يستبعد الموت عن نفسه ، وإن الله تعالى يأمره أن ينفق من ماله وهو في تلك الحالة .

أما إذا كبرت سنه أو أصابه المرض فإنه ييأسُ من الحياة وينقُص حبه للمال ، وليس ثواب صدقته في تلك الحالة كمن تصدق حال صحته وشبابه وقوته .

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب الزكاة عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها .

روى الشيخان والرواية للبخاري [1]عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

(جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ : أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ) – أي صحيح البدن تشُحُّ بمالك – (تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى [2]، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ : لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا ، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ) .

أي لا تُمهِل حتى إذا بلغت الحلقوم تأمر لفلان بعطاء ولفلان بعطاء ، والحال أنه سيصير لهم شئت أم أبيت لأنك ستموت عما قريب وتترك مالك لغيرك ، وصلى الله على معلم الناس الخير صلى الله عليه وسلم وجزاه الله عنا كل خير .

قوله تعالى : { وآتى المال على حبه } قد يكون المراد من قوله سبحانه :
{ على حبه } أي على حبه لله تعالى ، أي أنفقَ محباً لله تعالى ، مخلصاً مع الله ، لا يبتغي من وراء إنفاقه رياء ولا سمعة ولا ثناء الناس عليه .

ولا بد من الإخلاص لله تعالى في كل عمل حتى يثبت لصاحبه الثواب ، ومن أنفق ماله رياء وسمعة فقد ذهب ماله وسيعاقب ويعذب على ذلك يوم القيامة لأنه لم يبتغ وجه الله تعالى في صدقته .

---

[1] انظر صحيح البخاري ومسلم كتاب الزكاة

[2] وفي رواية عند الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة : (تأمل البقاء) .

ثم بين سبحانه مصارف الصدقات فقال جل وعز :

{ وآتى المال على حبه ذوي القربى } وهم أولى بالمعروف من غيرهم ، وفي عطائك لهم صلة لهم لأنهم أرحامك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (الصدقة على المسكين صدقة ، وهي على ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة)[1] .

ومن كان غنياً موسراً ومَنَعَ أرحامه صدقته ونفقته فقد حرمهم بذلك صدقات الناس عليهم ، لأن غيره من الأغنياء يقولون في أنفسهم : [إن أقرباء فلان الغني وأرحامه مكفيّين بعطائه وصدقته] ، ولا يعلمون أنهم محرومون من خيره وصلته ، وبفعله هذا يكون قد منعهم خير الناس وصدقاتهم ، فما أقبح فعل من قطع صلة أرحامه بالعطاء والصدقات إن كانوا بحاجة وفقر ، وبفعله هذا تسبّب في منع الخير عنهم ، فما أعظم ذنبه وأشرَّ ذنبه !!

قوله تعالى : { واليتامى } جمع يتيم ، وهو من فقد أباه حتى يبلغ .

{ والمساكين } وهم الفقراء ، { وابن السبيل } وهو من انقطع في السفر ولو كان في بلد إقامته غنياً .

قوله تعالى : { والسائلين } وهم الذين يسألون الناس فإذا غلب على ظنك أن هذا السائل بحاجة وَجَبَ عليك أن تعطيه .

---

[1] الحديث رواه الترمذي في سننه في كتاب الزكاة عن سلمان بن عامر رضي الله عنه .

ويحرم سؤال الإنسان غيره عن غير حاجة ، كما جاء التحذير والترهيب من ذلك في أحاديثه صلى الله عليه وسلم [١].

ولا يشترط في إعطاء السائل أن يكون عرياناً جائعاً ظهرت عليه علامات الفقر والاضطرار ، لأنه قد يسألك لقضاء أمر خفي عليك كالتداوي من المرض أو سد حاجة أولاده وعياله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(للسائل حق وإن جاء على فرس)[٢] .

أي : فلا تقل : لو كان هذا بحاجة لما ركب فرساً ، بل عليك أن تعطيه من غير مال الزكاة قياماً بحق السؤال .

قوله تعالى : { وفي الرقاب } أي تؤتي من مالك في فكِّ الرقاب المملوكة إذا كان هذا الأمر موجوداً .

---

[١] روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
(مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ) ، ومعنى (تَكَثُّرًا) : أَي ليكْثر مَاله ، لَا لحاجَة .

[٢] رواه أبو داود في سننه في كتاب الزكاة عن سيدنا الحسين رضي الله عنه بن أمير المؤمنين سيدنا علي كرّم الله تعالى وجهه .

قوله تعالى : { وأقام الصلاة وآتى الزكاة } وهذه أمور مفروضة لا بُدَّ منها ، أما الأمور المتقدم ذكرها فقد تكون مفروضة بالعارض أو على وجه الصدقات والقربات .

قوله تعالى : { والموفون بعهدهم إذا عاهدوا } ولم يقل جل وعلا : (وأوفَوا بعهدهم إذا عاهدوا) كما هو السياق ، وإنما جيء باسم الفاعل ليبيّن الاستمرار والمواظبة على وفاء العهد ، لأن اسم الفاعل يدل على الاستمرار ، أما الفعل (أوفى) فيدل على حدوث الفعل وهو هنا الوفاء ، وقد يتخلّف أحياناً فلا يقال عن صاحبه عندئذٍ إنه من الموفين بالعهد .

قوله تعالى : { والموفون بعهدهم إذا عاهدوا } أي عاهدوا الله تعالى ، أو عاهدوا خلق الله تعالى ، وأول عهدٍ عاهد الإنسان فيه ربه يوم أخذ سبحانه الميثاق على بني آدم كلهم ، قال سبحانه : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } .

ثم جاءت رسل الله تعالى تجدّد العهد مع الخلق على الإيمان بالله تعالى ، وبما جاء عن الله تعالى وهكذا .

وقد قال الله تعالى : { إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً } .

فمن وفَّى بعهده مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وفَّى بعهده مع الله تعالى .

وهناك عهود الخلق مع بعضهم في البيع والشراء والمعاملات كلها .

وقد قال الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود } .

قوله تعالى : { والصابرين في البأساء } – أي حال الشدة والفقر – { والضراء } – حال المصائب والنوائب – { وحين البأس } – أي حين تشتد الحرب – { أولئك الذين صدقوا } – أشار سبحانه لعلو رتبتهم ومنزلتهم بقوله :

{ أولئك } ، ومدحهم بأنهم صادقون في إيمانهم فقال جل وعلا :

{ وأولئك هم المتقون } ، وهذه هي صفات الصادقين المتقين كما بينها الله تعالى رب العالمين .

ثم ذكر الإمام البخاري رضي الله عنه أمور الإيمان التي ذكرها سبحانه بقوله :

{ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون) .

وقد ذكر سبحانه في هذه الآيات صفات ومناقب المؤمنين ، ومن لم يتحقق بها على تمامها فهو على نقص في إيمانه ، ولا يكون مؤمناً كاملاً إلا إذا تحقق بجميع شعب الإيمان التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والحديث الشريف .
وقوله تعالى في جملة أوصاف المؤمنين أهل الإيمان الكامل :

{ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون } .

أي فمن سعى في صرف شهوته أو إثارتها في غير هذا المصرف الذي شرعه الله تعالى من الزوجات والمملوكات - عندما كان الرقُّ موجوداً - فقد تعدى حدود الله تعالى ووقع في الحرام .

ويحرم بناء على ذلك النظر إلى صورة المرأة الأجنبية ، وإن أفتى مفتو آخر الزمن بجواز ذلك ، وذلك لأن علة التحريم قائمة ، وهي استثارة الشهوة ثم السعي إلى رؤية صاحبة تلك الصورة وما هنالك .

ويحرم بناء على ذلك أيضاً الاستمناء باليد ، وهي معصية وقع فيها كثير من شباب المسلمين ، ويسمُّونها العادة السرية ، وما هي إلا عادة شريرة تُنهك قوة الشاب وتضر بصحته .

ولما نزلت الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنين قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة الكرام ثم رفع يديه ودعا فقال :

(اللّهُمَّ زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا)[١] .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

---

[١] فقد روى الترمذي في سننه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :
(كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدوي النحل ، فأنزل عليه يوماً ، فمكثنا ساعة ، فسري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : (اللّهُمَّ زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : أنزل عليَّ عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : { قد أفلح المؤمنون }... حتى ختم عشر آياتٍ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه ، قال :

باب حُب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان .

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده) .

وأورد بسنده إلى أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(لا يؤمن أحدكم أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين) . [1] اهـ

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان

وقد ذكر البخاري رضي الله عنه أن الإيمان قول وعمل ، وأنه يزيد وينقص ، والعمل نوعان : قلبي وقالبي ، فالإيمان يشتمل على أقوال وأعمال ، منها : القلبية الاعتقادية ، ومنها الجسمانية .

ثم ذكر البخاري رضي الله عنه أمور الإيمان أي شعبه ، ومن جملتها وأهمها : محبة النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : (فوالذي نفسي بيده) : قَسمٌ كثيراً ما كان يقسم به صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : فوالذي روحي وذاتي وذراتي بيده - وهذا هو الله تعالى رب العالمين المتولي لأمور رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها بالتولية الخاصة .

وفي هذا دليل على أن القسم قد يؤتى به على طريق الاستحلاف ، وقد يؤتى به لا على طريق الاستحلاف بل من أجل تأكيد الكلام ولفت الفكر إلى أهمية واعتبار المُقسَم عليه .

فقد أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوكيد أهمية محبته صلى الله عليه وسلم وقوة منزلتها من الإيمان ، ويجب أن تكون محبته صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب من الوالد والولد والناس أجمعين .

ويدل الحديث أيضاً على جواز الحلف بالله تعالى ، لبيان أهمية وعظمة أمر يخبر عنه ، وإن لم يستحلف الإنسان على ذلك ، بل إن كان قصد الإنسان من الحلف لفت الفكر إلى أهمية واعتبار ما سيحلف عليه في الشرع فله في ذلك أسوة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جاءت أكثر روايات الحديث أنه صلى الله عليه وسلم يذكر الوالد مقدماً على الولد ، وهذا لاعتبارات متعددة ، منها : تقديم من هو الأكرم على الكريم ، إذ إن الوالد هو الأكرم والأعظم مقاماً من الولد عند كل إنسان .

ومن ناحية أخرى فإن كل إنسان لا يخلو من والد له ، ولكنه قد يكون لا ولد له ، ومن المعلوم أن الإنسان يحب والده محبة فطرية فطر الله تعالى كل إنسان عليها ، ويحبه محبة عقلية باعتبار أنه والده وله الفضل عليه ، وقد تعب وقاسى في تربيته وعنايته ، ويحبه محبة شرعية إيمانية باعتبار أن الله تعالى أمر الإنسان بالإحسان إلى والديه والبر بهما وحذَّر من عقوقهما ، وكذلك فطر الله تعالى كل إنسان على محبة ولده والعطف عليه والرحمة به باعتبار أنه ولده ، ومن صلبه وبضعة منه .

وكذلك جعل الله تعالى المودة والرحمة بين الزوجين ، فالرجل يحب زوجته والمرأة تحب زوجها ، كما أن النفوس جبلت على حب الجمال والكمال وحب من أحسن إليها .

ومع ذلك كله فقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يتم لمؤمن إيمانه حتى يكون هو صلى الله عليه وسلم أحبَّ إليه من كل محبوب ، من والده وولده وزوجه وشيخه والناس أجمعين ، وكلما ازداد المؤمن حباً في رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتقى إيمانه في مقامات الكمال ، ولم يرضَ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحدٍ أن يحبه كما يحب والده أو شيخه ، فلم يقل حتى يحبني كما يحب والده ،بل قال صلى الله عليه وسلم :

(حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين) .

أي أن تكون محبتي عنده أعظم من محبته لوالده وولده والناس أجمعين .

ولكي تفهم سبب وحكمة وجوب محبته صلى الله عليه وسلم فوق كل محبوبٍ ، فإليك وجوهاً في بيان ذلك :

أولاً : يجب أن تعلمَ أن قضية محبته صلى الله عليه وسلم فوق كل محبوب قضية إيمانية فرضية محتمة على كل مؤمن حتى يكمل له إيمانه ، ومن لم يتحقق بذلك فهو ناقص الإيمان وفي قلبه فسوق ، لأن الله تعالى قال :

{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } .

أي فإن أنتم لم تتحققوا بذلك فأنتم فاسقون ، وتربَّصوا أي انتظروا أمر الله تعالى بالعذاب .

ثانياً : يجب أن تعلم أن المحبة تقوم على أصلين ، وكل أصلٍ تتفرع عنه أصول ، أما الأصل الأول في سبب المحبة فهو الجمال ، والأصل الثاني هو النوال ، ولا بد لكل محبة أن ترجع إلى أحد هذين الأصلين ، فقد تحب إنساناً لنواله أي لما ينالك منه من سخائه ومن كرمه وعطفه عليك وإحسانه إليك ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها .

وقد تحب إنساناً لجماله وكماله أي لتحققه بصفات الجمال والكمال من صلاح وتقى ونزاهة وعفاف [1] وهكذا .

وإذا اجتمعت في إنسان صفات الجمال والنوال فإن محبتك له تكون أكبر وأعظم ، فما هو موقفك إذاً في المحبة مع من اجتمعت فيه الكمالات النفسية والخَلقيَّة والخُلُقية والعِلمية على وجه فرداني دون خلق الله تعالى كلهم ؟!

---

[1] والجمال محبوب لا يعلل ، إذ فطر الله تعالى النفوس على حب الجمال ، كحبِّ الإنسان للأزهار والورود ، إذ إن جمالها بأشكالها وألوانها وروائحها ، أما جمال الإنسان فهو بكماله النفسي والخلقي والإيماني .

نعم يجب أن تكون محبتك له فوق كل محبة ، وهذا هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أفاض الله تعالى عليه الكمالات والمحاسن الخَلقية والخُلُقية على وجه لم يشاركه فيه أحد ، حتى قال صلى الله عليه وسلم :

(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[١] .

وكثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يقول في فواتح خطبه : (إن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد - صلى الله عليه وسلم)[٢] أي فإن كان الأنبياء قبْله عليهم السلام قد جاء كل منهم بهدي فيه صلاح قومه وسعادتهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بأفضل هديٍ ، وفيه صلاح وسعادة جميع الأمم إلى يوم القيامة ، وإن كان كل نبي قد جاء بالأخلاق الحسنة الفاضلة فإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعِثَ لينشر أحسن الأخلاق وأفضلها وأعلاها ، وقد امتدحه الله تعالى بقوله :

{ وإنك لعلى خلق عظيم } صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم أعظم خلق الله تعالى أخلاقاً ، وأجملُهم خَلقاً ، وأحسنهم سيرة ، وألينهم عشرة ، وهو أعلم خلق الله تعالى ، وأصدق خلق الله تعالى ، وأتقى خلق الله تعالى ، وأخشى خلق الله تعالى ، وأعبدهم وأحمدهم لله تعالى ، وهو أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، وأحبهم إلى الله تعالى ، فيجب أن يكون أحبهم إلى خلقه أيضاً حتى يكمل إيمانهم .

---

[١] رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه الإمام مالك في الموطأ بلاغاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت لأتمم حسن الأخلاق) .

[٢] كما جاء في سنن النسائي كتاب صلاة العيدين .

ثالثاً : إذا كان الإنسان يحب والده لأن والده يحب له الخير ويعطف عليه ، إلا أنه قد يمتنع أحياناً عن ذلك لأسباب وموانع ، فإن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخير لكل إنسان أعظم من محبة الوالد الخير لولده ، بل وأعظم من محبة الإنسان الخير لنفسه .

وانظر إلى قوله تعالى : { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } أي أحق بأنفسهم من أنفسهم ، وأرحم بهم من أنفسهم وهكذا .

وروى البخاري [١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضياعاً) أي عيالاً (فليأتني فأنا مولاه).

وقال سبحانه في بيان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية وسعادة الناس : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } .

أي يعز ويشق عليه ما فيه عنتكم وحرجكم ، وهو صلى الله عليه وسلم حريص على هدايتكم وإيصال الخير إليكم وسعادتكم في الدنيا وفي الآخرة ، وهو صلى الله عليه وسلم رؤوف بكم أي يسعى في دفع الضرر والعذاب عنكم ، وهو رحيم بكم يريد لكم كل خير ونفع ونعمة .

---

[١] في صحيحه في كتاب التفسير

ولذلك وجب على كل مؤمن أن يحب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب ، وأن يحبه أكثر من حبه لنفسه ، لأنه صلى الله عليه وسلم يريد الخير لكل إنسان ، ويحب الخير لكل إنسان أعظم وأكثر من محبة الإنسان الخير لنفسه ، ولذلك جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد[1] عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال :

[كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : واللهِ لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحبَّ إليه من نفسه) .

قال عمر رضي الله عنه : فلأنت الآن واللهِ أحبُّ إليَّ من نفسي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر) .

وقال سبحانه : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ } .

---

[1] المسند ١٧٣٥٥

أي بل تكون رغبتهم في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقدمة على رغبتهم في أنفسهم ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم يريد لهم الخير أكثر مما يريدونه هم لأنفسهم ، وهو صلى الله عليه وسلم أرحم بهم من أنفسهم ، لأن نفس الإنسان قد تجره إلى المهالك ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حذَّره من كل شر ودلَّه على كل خير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل ينزعهُنَّ ، ويغلبنه فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وهم يقتحمون فيها)[1] . فهذا موقفه صلى الله عليه وسلم مع الأمة ، إنه موقف المُنقذ والمُنْجد الذي يُبعد الناس عن الوقوع في النار وهم يقتحمونها ولا يرحمون أنفسهم ، ولكنه صلى الله عليه وسلم رؤوف رحيم بهم .

وإذا كان الإنسان يحبُّ نفسه لأنها عزيزة عليه ، فإن نفس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعزُّ وأكرمُ ، بل إن العزة كلها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن أراد العزة فليؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وليدخل في ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم لينال عزة الأبد ، ولولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان للناس عزة ولا اعتبار ، بل كانوا في ضلال مبين كما وصفهم سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله :

---

[1] رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق عن أبي هريرة رضي الله عنه .

{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } أي في ضلال بيّن حتى كانوا أضلَّ من الأنعام ، إذ بلغ الجهل والضلال بهم إلى أن يئدوا بناتهم وهن على قيد الحياة ، ويقتلوا أولادهم خشية الفقر ، مع أن الدابة والبهيمة ترفع حافرها لئلا تُصيب ولدها بأذى ، فمن أضل إذاً الكفار أم الأنعام ؟!

فما أعظم فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمة ، وما أشرف مقامه ؟!

إذ نقل الناس من الضلال المبين إلى النور المبين ، فمن آمن به واتبعه فقد ترفع عن الصفات البهيمية الشهوانية ، وترقَّى في الكمالات الإنسانية العلوية .

ويجب على كل إنسان أن يعلم أن أحكام الشريعة أحكام محكمة قائمة على حكم عالية ، قد يدرك بعضها الإنسان ، وقد يخفى عليه أمور كثيرة تحتاج إلى تدبر وتفكر منه ، فلما فرض الله تعالى علينا محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب ، لم يكن ذلك من باب إلزام ما لا يلزم ، أو حكماً لا حكمة من ورائه ، بل إن من وراء ذلك حكماً عالية ، جاء بيان بعضها في كتاب الله تعالى وحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فإن العقول قاصرة عن إدراك جميع ما هنالك من حكم وأسرار انطوت في أحكام الله تعالى ، التي من جملتها أن فرض على الأمة محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب .

ويكفيك سبباً يحملك على أن تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب أن تعلم أنه صلى الله عليه وسلم أرحم بك من والدك وولدك ومن الناس أجمعين ، بل ومن نفسك ، ففي يوم القيامة يوم يحشر الناس ويتخلى الوالد عن ولده ، والولد عن والده ، حتى إن الناس يلجؤون إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لإغاثتهم ، فيكون جواب كل منهم (وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي)[١] ، فلما يلجؤون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستغيثون به ، يكون صلى الله عليه وسلم خير مُغيث وخير مُجيرٍ ، فيقول : (أنا لها) [٢] ، ويَظهر لكل إنسان أنه صلى الله عليه وسلم يريد الخير له أكثر مما هو يريده لنفسه ، وإن كان ذلك في الدنيا أيضاً ، إذ قد يقدم الإنسان على نحر نفسه إذا اشتد غضبه ومقتُه ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يرضى له ذلك ، فهو أرحم بالإنسان من نفس الإنسان .

ولما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم بالمؤمنين من أنفسهم ، جاءنا بشريعةٍ من عند الله تعالى فيها الرأفة والرحمة ، وأحكامها مقبولة معقولة محكمة ، يدرك هذا من تعقَّل وتدبَّر وتحرَّر من أسر الأهواء والكِبر والعُجب .

[١] رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٥٦٠ عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

[٢] كما جاء هذا في صحيح البخاري وغيره .

ويجب على الإنسان المؤمن أن يكون موقفه مع أحكام الشريعة المُحمدية موقف المُتحاكِم إليها المتقبِّل لها الراضي بحكمها ، لا موقف المُنتقد المُعترض ، الذي إذا جاء الحُكم مُخالفاً لأهوائه ضاق به ذرعاً ووجد الحرج والعَنَت .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى التَّحاكم إلى شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والإذعان إليها مع الرضا بأحكامها جعل ذلك ميزان الإيمان ، فقال تعالى : { فلا وربِّك لا يؤمنون حتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شجر بينهم }

- أي حتى يتحاكموا إليك فيما وقع بينهم أو اختلط عليهم –

{ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً } .

أي لا يصح لهم إيمانهم حتى يذعنوا لما جئت به قولاً وعملاً وعقيدة مع الرضا والتسليم القلبي .

وذلك لأن ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من شريعة هو غاية الحكمة ، وفيها صلاح الإنسان وسعادته ، وإذا التبس على الإنسان فَهْمُ ذلك لضيق عقله وقلة علمه فعليه التسليم لمن آتاه الله تعالى الحكمة كلها صلى الله عليه وسلم ، وقد قال سبحانه :

{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } .

وكلما ازداد المؤمن معرفة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشمائله وخصاله وفضائله الكريمة الشريفة التي خصه الله تعالى بها ازداد حباً فيه صلى الله عليه وسلم ، فازداد إيمانه وارتقى إلى مقام الكمال ، ومن هنا تفهم وجوب التعرف إلى جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والاطّلاع على خصاله وشمائله وسيرته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : { واعلموا أن فيكم رسول الله } صلى الله عليه وسلم ، أي فاعرفوا له قدره وفضله ، وقال سبحانه في الإنكار على المشركين الذين جحدوا رسالة ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : { أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون } .

ومهما عرف الإنسان وارتقى في المعرفة ، فهو عاجز عن معرفة الكمالات التي خصَّ الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنها كمالات نبوية خاصة به صلى الله عليه وسلم ، لم ينلها نبي قبله صلى الله عليه وسلم ، فأنى لأحد إدراكها ؟

وإن الدليل الصادق على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو اتباعه صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم ، والتمسك بسنته صلى الله عليه وسلم على أكمل الوجوه .

ومن قدم هوى نفسه وشهواته على أمرٍ أمَرَ به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على نقصٍ من محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى نقصٍ من الإيمان ، وذلك لأن من ادعى محبة شيء لزمه أن يأتي بالشواهد على صدق دعواه .

فدليل المحبة الصادقة كمال اتباعه صلى الله عليه وسلم ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا محبته جل وعلا ومحبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي يرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عنَّا . آمين

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه ، قال :

باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر [١]

وقال إبراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيتُ أن أكون مكذباً .

وقال ابن أبي مُليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أَمِنه إلا منافق .

وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة ، لقول الله تعالى :

{ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون } .

---

[١] كما في كتاب الإيمان .

ثم أورد بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر) . اهـ

إبراهيم التيمي رضي الله عنه أحد كبار التابعين ، كان على قدم في الصدق والإخلاص ، وكان يُعلم الناس ويعظهم ، إلا أنه كما قال يخاف أن يكون كلامه مخالفاً عمله .

أما ابن أبي مليكة رضي الله عنه فهو تابعي جليل ، أدرك ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، منهم أبو هريرة ، وأنس بن مالك ، وأم المؤمنين السيدة عائشة ، وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين .

وهؤلاء الذين أدركهم كلهم كان كل واحد منهم يخاف النفاق على نفسه كما قال - والمراد من النفاق هنا النفاق العمليُّ [1] - وذلك لِشِدة ورعهم وخشيتهم من الله تعالى ، فهم يخافون أن تكون أعمالهم مشوبة بشيء من الرياء والسمعة وحُبِّ الظهور وعدم الإخلاص فيها لله وحده ، ولذلك ما فيهم من يقول إن إيمانه على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام .

وإذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخافون النفاق على أنفسهم ، مع أن الله تعالى شهد لهم بالإيمان الحق والإخلاص والصدق ، فهذا يعني أن من شأن المؤمن الكامل المخلص أن يخاف على نفسه النفاق والرياء ، وأن لا يزكي نفسه بالمدح والثناء ، وأن يتَّهِم نفسه بالتقصير .

---

[1] وذلك لأن النفاق على نوعين : النفاق الأكبر ، وهو النفاق الاعتقادي ، وهو الكفر ، إذ يُظهِر صاحبه الإيمان ويبطن الكفر ، قال الله تعالى :
{ يا أيها الرسول لا يحزُنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم } .
وقال سبحانه : { وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون } .
وهناك النفاق الأصغر وهو النفاق العملي ، ومن علامات صاحبه أنه إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وهكذا فأمره على خطر إذا لم يبادر إلى التوبة .

ولذلك قال الحسن البصري [1] رضي الله عنه :

[ما خاف الله إلا مؤمن ، وما أمنه إلا منافق] .

وهذا خلاف ما عليه مؤمنو عصرنا الذين غلب عليهم الغرور وحُبُّ الدَّعوى والظهور ، وكأنَّ أحدهم إذا قام من الليل يصلي ما تيسر له فقد ارتقى أعلى المقامات ، وما درى هذا الجاهل أن السلف الصالح رضي الله عنهم مع قوة إيمانهم وكثرة أعمالهم وصدقهم وإخلاصهم ، لم يرد عن أحدٍ منهم أنه مدح نفسه بكثرة عبادته أو ولايته .

---

[1] والحسن رضي الله عنه من أفاضل التابعين وزُهَّادهم ، نال مقاماً عالياً في العلم والفضل والولاية ، تأثر بوعظه وتذكيره كثير من التابعين الذين سمعوا له ، وقد حصل كل ذلك بسبب نَفَحَاتٍ أصابته من بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفياض بالعلم والخير والنور والبركة ، فكانت أمه واسمها (خيّرَة) مملوكة لأم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها ، ثم أعتقتها وزوجتها فولدت الحسن ، فكانت تتردد إلى بيت السيدة أم سلمة رضي الله تعالى عنها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وربما أرسلتها السيدة أم سلمة رضي الله عنها في بعض حاجاتها ، وتركت الحسن عندها - وهو رضيع - ، فكان إذا بكى الحسن أخذته السيدة أم سلمة رضي الله عنها ووضعته على صدرها مداعبة ومؤانسة له ، حتى يهدأ ويسكن ، فببركة ذلك نال الحسن ما نال ، وبلغ مبلغ الرجال في العلم والتقى ، ونسأل الله تعالى نَفحَةً مُحَمَّدِيَّةً تُسعدنا في الدنيا وفي الآخرة .

أما شهادة الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم وثناؤه عليهم بالإيمان الحق ، فقد قال جل وعلا :

{ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا } - وهم المهاجرون والأنصار -{ أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم } .

وقال سبحانه وتعالى في مدحه للصحابة الكرام وشهادته جل وعلا لهم بالإخلاص : { محمد رسول الله } - صلى الله عليه وسلم - { والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سُجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً } - أي في سجودهم وأعمالهم وجهادهم - { سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً } .

وإذا كانت صفة المؤمن الصادق الخوف من الله تعالى ، فاعلم أن الخوف قد يكون من حبوط العمل إن وقع صاحبه في ذنب جاء فيه أنه يحبط العمل ، وأعظم تلك الذنوب التلفظ بكلام الكفر ، فهي تحبط عمل الإنسان كله . وقد قال سبحانه : (لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكونن من الخاسرين) .

وهناك من الألفاظ التي يتكلم بها الإنسان متهاوناً بمعناها ومدلولها ، فيحبط كثير من أعماله وهو لا يشعر ، فقد روى البخاري [1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن العبد ليتكلَّم بالكلمة ، ما يتبيَّنُ فيها ، يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق) ، وفي سنن الترمذي [2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ، لا يرى بها بأساً ، يهوي بها سبعين خريفاً في النار)

وليست هذه الكلمة من قبيل الكفر ، إذ لو كانت كذلك لحبط سائر عمله ، ولكنها كلمة فيها شيء من المس بجانب الشريعة أو النبوة المحمدية وهكذا .
ومن الذنوب التي تحبط الأعمال : المنُّ على من تصدقت عليه وإيذاؤه بالكلام ، وقد قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى } ، وقال سبحانه : { قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم } .

---

[1] في صحيحه في كتاب الرقاق .

[2] في كتاب الزهد .

ومن أعظم الذنوب التي تحبط الأعمال أيضاً : إساءة الأدب مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، سواء في مجالس أحاديثه الشريفة أو ذكر قصة مولده المبارك صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون } .

وقد نصَّ العارفون على أنَّ من ناظر غيره أو جادله في أمر شرعي أو حكم فقهي ، وقال له الآخر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذكر له حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيجب عليه أن يصغي ولا يقاطعه ، حتى يفرغ من ذكر حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إذا أراد الكلام بعد ذلك فليتكلَّم بصوت منخفض سمته الأدب والوقار ، وإلا فقد رفع صوته فوق صوت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عَارَضَه ، فيقع عندئذٍ في الإثم ويحبط من عمله الصالح على حسب ذلك وهو لا يشعر ، ومن باب أولى يحبط عمل من عارض آية من كلام الله تعالى وقاطع قائلها ولم يُصغ إليه .

وكما يجب على المؤمن أن يخاف ويحذر من زلات لسانه ، فيجب عليه أن يحذر الفتن والشبهات والضلالات التي تُفسد عليه إيمانه وتسيء عاقبته ، إلا من خاف من ذلك ، واستعان بالله جل وعلا وسأله الحفظ من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وسأله حسن الخاتمة .

وقد ذكر سبحانه صفات وخصال أهل الإيمان على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم في سورة المؤمنون ، فقال جل وعلا :

{ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة } - أي خائفة مشفقة –{ أنهم } - أي لأنهم – { إلى ربهم راجعون * أولئك يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون } .

فذكر سبحانه من صفات المؤمنين السابقين أنهم يخافون ربهم ، لأنه ربهم جل وعلا وهم عبيده ، وشأن العبد أن يخاف مقام الرب وعظمته وجلاله ، كما هو عليه حال الملائكة الذين وصفهم سبحانه بقوله :

{ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون } .

قوله تعالى في وصف المؤمنين السابقين : { والذين هم بآيات ربهم يؤمنون } أي إيماناً قلبياً اعتقادياً ، وإيماناً عملياً تحققياً .

{ والذين هم بربهم لا يشركون } وليس المراد في الآية السابقة من الشرك الشرك الأكبر كعبادة الأصنام ، إذ إن هذا يتنافى مع وصف الله تعالى لهم بأنهم من خشية ربهم مشفقون ، وأنهم بآيات ربهم يؤمنون .

والمراد من الشرك في الآية السابقة الشرك الأصغر ، وهو الشرك الخفي ، فهم لا يشركون مع الله أحداً ، أي أنهم يؤمنون ويعتقدون أنه لا تأثير لشيء من المخلوقات من ذاته ، بل إن الفعال والمدبر والمؤثر والضار والنافع هو الله تعالى وحده ، الذي لا حول ولا قوة إلا به ، أي لا حول لمتحول ومتحرك إلا بالله ، ولا قوة لمتقوٍّ إلا بالله وحده .

فإذا شرب الإنسان العطشان الماء ، فإن الذي يرويه على الحقيقة هو الله تعالى وليس الماء ، وإذا شرب المريض الدواء فإن الذي شفاه بالدواء هو الله تعالى ، ولا تأثير للدواء من ذاته ، بل الفعَّال والمؤثر هو الله تعالى ، فإن شاء شفى المريض به ، وإلا فلا ، وذلك يرجع لعلمه وحكمته سبحانه ، وهكذا سائر الأسباب والوسائط ، فإن شاء سبحانه أعملها لما خلقها له ، وإن شاء أهملها ، كما سلب سبحانه صفة الإحراق من النار التي أراد النمرود أن يحرق بها الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

كما أن قوله تعالى : { والذين هم بربهم لا يشركون } أي لا يشركون أنفسهم مع الله تعالى ، فلا يرون لأنفسهم حولاً ولا قوةً من ذاتهم ، بل حولهم وقوتهم بالله تعالى ، ولا غنى لهم عن إمداد الله تعالى لهم ولا لحظة ، وهذا مقتضى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (لا حول ولا قوة إلا بالله).

قوله تعالى : { والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة } - أي يؤتون ما آتوا من أعمال صالحة - كما بيَّن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - لكنَّهم على وجل وخوف أن لا تقبل منهم لنقص إخلاصهم وصدقهم فيها مع الله تعالى .

جاء في سنن الترمذي [1] أنه لما نزلت هذه الآية سألت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : (هم الذين يشربون الخمر ويسرقون) - يعني أَهُمُ العصاة الذين يفعلون المعاصي ويخافون ؟

قال : (لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات) .

أي يخافون أن لا يقبل منهم بسبب عدم إخلاصهم الكامل مع الله تعالى ، أو بسبب موانع تمنع قبول أعمالهم جاء بيانها عنه صلى الله عليه وآله سلم .

قوله تعالى : { أنهم إلى ربهم راجعون } أي لأنهم سيرجعون إلى الله تعالى وسيسألهم عن مقصودهم من أعمالهم ثم يجزيهم عليها .

ثم شهد سبحانه لهؤلاء بأنهم هم المؤمنون السابقون فقال عز من قائل :

{ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون } .

[1] في كتاب تفسير القرآن .

ويُروى عن الحسن البصري رضي الله عنه قوله :

(أدركت سبعين بدرياً) - أي من الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر –

(أكثر لباسهم الصوف ، لو رأيتموهم لقلتم : مجانين) - والخطاب للتابعين ، أي لقلتم عنهم مجانين لشدة ورعهم وزهدهم – (ولو رأوا خياركم لقالوا : ما لهؤلاء عند الله من خَلَاق ، ولو رأوا شراركم) - أي العصاة منكم –(لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب) . فانظر أيها العاقل في الفرق الكبير بين حال الصحابة الكرام والتابعين من بعدهم .

(ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه) [١] - أي لعدم قيمتها عنده - .

ومن العجيب أن بعض المؤمنين في زماننا راح يجعل عزته وشهرته تحت قدميه ، فيكتب اسمه على الأحذية التي يصنعها ، لِيُذاع اسمه وينتشر خبره وتروج بضاعته ويكثر ماله !!

وشتان بين أقوام جعلوا الدنيا وأموالها تحت أقدامهم ، وأقوام جعلوا أسماءهم تحت أقدامهم لينالوا مال الدنيا .

---

[١] رواه أبو نعيم في الحلية عن علقمة بن مرثد وأورده المزي في تهذيب الكمال والحسين بن محمد بن إبراهيم الحنائي في كتابه العاشر من الحنائيات والحسن بن علي الجوهري في حديث أبي الفضل الزهري

نعم لقد غير هؤلاء ميزان المروءة والاعتبار لما استحكم حب الدنيا على قلوبهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (حُبُّ الدنيا رأس كل خطيئة) [١] ، وروى أبو داود [٢] عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (حُبُّك الشيء يُعمي ويُصم) أي يعمي صاحبه ويُصمُّه عن كل شيء يضُرُّه ، وذلك في سبيل الحصول على الدنيا وأموالها .

وإذا كنت أيها الجاهل قد تنازلت عن كرامتك لاسمك ووضعته تحت الأقدام ، فاحفظ حُرمة هذا الاسم الذي سمَّاكَ به والدك ، خاصة إذا كان اسماً كريماً شريفاً مُقدَّساً .

ومن المُحرَّمات التي وقع الناس فيها في زمننا التهاون برمي الأوراق والأكياس التي كُتب عليها أسماء أو أقوال لها حُرمتها في شرع الله تعالى ، وليعلم هؤلاء أنَّ من أهان شيئاً له حُرمَتُه في شرع الله تعالى أهانَه الله ، ومن احتَرَمَهُ وأكرمهُ أكرمهُ الله .

---

[١] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .

[٢] في سننه في كتاب الأدب .

وقد ذكر الإمام القشيري رحمه الله تعالى عن بشر الحافي رحمه الله تعالى أنه وجد في الطريق ورقةً مكتوباً فيها اسم الله عَزَّ وجَلَّ ، وقد وطئتها الأقدام ، فأخذها ، واشترى بدراهم كانت معه غَالِيَةً - أي طِيْبَاً جيداً - فطيَّبَ بها الورقة ، ثم جعلها في شِقِّ جدارٍ عالٍ حصينٍ ، فرأى في تلك الليلة وهو نائم كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : (يَا بِشْرُ طَيَّبْتَ اسمِي ، لأُطَيِّبَنَّكَ في الدُّنيَا والآخِرة) [1].

ويُروى أنَّ هذه الرؤيا كانت سبب إنابته بِكُلِيَّتِهِ إلى مَولاهُ سُبحانه ، وقد نال بِشرُ رضي الله عنه مقاماً عالياً في العلم والورع والولاية .

قال الله تعالى : { ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب }

ولابد لقلب عامرٍ بالإيمان أن يظهر أثره على الجوارح واللسان بتكريم وتعظيم ما هو كريم ومحترم في دين الله تعالى .

وهكذا قول الحسن رضي الله عنه : (ما خاف الله إلا مؤمن ، وما أمنه إلا منافق) ، فمن خافَ الله ولجأ إليه واستعاذ به حفظه الله تعالى وأدخله في أمانه ، وأما من أعطى نفسه الأمان دون أن يلتجأ ويعتصم بالله تعالى فهو مغرور بنفسه ، وَيَكِلُهُ الله تعالى إلى نفسه فيهوي في المهالك ، نسأل الله العافية . آمين

---

[1] انظر الرسالة القشيرية ص ١٠

وقد علَّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمَّتَهُ أدعيةً ليدْعوا بها ربهم ، ومنها : (اللّٰهُمَّ أحسن عاقبتنا في الأمور كُلِّها ، وأَجِرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة)[1] .

وجاء في الحديث القدسي : (وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ، إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة) ،[2] فخوف العبد من الله تعالى في الدنيا هو أمان له يوم القيامة .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

[1] رواه الإمام أحمد في المسند عن بسر بن أرطاة رضي الله تعالى عنه

[2] قال الحافظ المنذري في الترغيب : رواه ابن حبان في صحيحه اهـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اللّٰهُمَّ علِّمه الكتاب) .

ثم أورد بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

[ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (اللّٰهُمَّ علمه الكتاب) [١] .

[١] صحيح البخاري كتاب العلم

وفي رواية :

[ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال : اللَّهُمَّ علمه الحكمة][1]

- والضم لا يكون إلا إلى الصدر ، فتقول : ضم الوالد ولده أي إلى صدره ، وضمت الأم ابنها أي إلى صدرها - .

وفي رواية : (اللَّهُمَّ علمه الحكمة وتأويل الكتاب)[2]

- أي : تفسير القرآن - . اهـ

قال الحافظ ابن حجر [3]:

أخرج البغوي في معجم الصحابة من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : [كان عمر يدعو ابن عباس ويقرِّبه] - أي : أيام خلافته فيجلسه مع كبار الصحابة ، في حين أن ابن عباس وقتئذ حديث السن – [ويقول : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك يوماً فمسح رأسك وقال : " اللَّهُمَّ فقهه في الدين ، وعلمه التأويل "] . اهـ

---

[1] صحيح البخاري كتاب المناقب

[2] انظر سنن ابن ماجه في المقدمة

[3] فتح الباري ١ / ١٢٣

ويدل هذا أولاً على أن أشرف العلوم وأفضلها هو العلم بكتاب الله تعالى وأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرم ابن عباس رضي الله عنهما ويتحفه ، فضمَّه إلى صدره ودعا له ، وفي هذا الضم إفاضة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن عباس رضي الله عنهما ، ففتح الله على ابن عباس علوماً ومعارف كثيرة وراح يفهم من المعاني القرآنية ما لم يفهمه غيره ، حتى سمَّاه السلف رضي الله عنهم : [ترجمان القرآن وحبر الأمة] .

ولا تظن أن مفاهيم ابن عباس رضي الله عنهما قد حُرِمها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فإن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إفاضات لأصحابه متنوعة في كيفياتها ، وهي على مراتب [1] ، ولكل منهم حظه ونصيبه الوافر منها رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

قوله صلى الله عليه وسلم : (اللَّهُمَّ علمه الكتاب) أي علماً خاصاً ، وإن أول ما يشمله العلم بالكتاب العلم بكيفية تلاوته وتجويده ، إذ لا بد من التحقق بالحد الأدنى من التجويد ، وهو تصحيح الحروف بالنطق ومراعاة صفاتها وأحكامها ، وهذا لأن الله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فلابد من قراءته بلسان عربي مبين فصيح .

[1] فمنها الضم أو الغرف أو المجالسة وغيرها .

ثم هناك العلم بمعاني القرآن ، فعامة الناس يفهمون من القرآن المعاني الإجمالية الظاهرة لأنهم عرب ، والقرآن نزل بلسان عربي مبين .

ثم هناك العلم بحقائق القرآن ومعانيه العالية ، والعلم بأسرار القرآن وإشاراته العرفانية ، واستنباط الأحكام الشرعية ، فهذا كله يحتاج إلى بحث وجهد وتفهيم من الله تعالى ، وهذا ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما بقوله : (اللّهُمَّ علمه الكتاب) فآتاه الله تعالى علوماً ومفاهيم للقرآن ما نالها إلا كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

وكان رضي الله عنه يقول للتابعين :

[لو تكلمت لكم على قوله تعالى : { الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً } يقول لهم : لرجمتموني][1] .

أي : لقتلتموني ، وذلك لأن عقولهم قاصرة عن فهم ما خص الله تعالى به ابن عباس رضي الله عنهما من علوم ومفاهيم لأسرار القرآن وحقائقه ومعانيه ، ولا استعداد عندهم لتقبل تلك المفاهيم العالية .

---

[1] انظر كتاب [قواعد العقائد] للإمام حجة الإسلام الغزالي ص ١١٥

وروى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

[كان عمر رضي الله عنه يسألني مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتسأله ولنا بنون مثله ، قال : فقال عمر : إنه من حيث علمتم] - أي : إنه من بيت النبوة من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسح على رأسه - ، [قال : فسألهم عن { إذا جاء نصر الله والفتح } فقال بعضهم : أمرنا الله أن نحمده ونستغفره ، وقال بعضهم : لا ندري ، فقال لي : يا ابن عباس ، ما تقول ؟ قال : فقلت : « هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقرأ السورة إلى آخرها ، قال : فقال عمر : « والله ما أعلم منها إلا ما تعلم »] .

ففهم رضي الله عنه ما لم يفهمه غيره من الإشارات والمعاني القرآنية ، كل ذلك ببركة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير [1] :

إن عمر كان يدعو عبد الله بن عباس فيقربه ويقول: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك يوماً فمسح رأسك وتفل في فيك وقال:

(اللَّهُمَّ فقهه في الدين، وعلمه التأويل) .

---

[1] ٨ / ٣٢٦

وإن لتفلاته صلى الله عليه وسلم آثاراً تظهر على من تفل عليه على حسب استعداده ، وما يتطلبه الحال الذي هو فيه ، فكان صلى الله عليه وسلم يتفل على المريض فيبرأ بإذن الله تعالى ، ويتفل على الجريح فيشفى بإذن الله تعالى ، وتفل صلى الله عليه وسلم في عين علي رضي الله عنه فبرأ من الرمد الذي ألَمَّ به ، وكان يتفل في البئر فيفيض ماؤها ، ويتفل في البئر المالحة فتصير ماؤها عذبة بإذن الله تعالى [1]، كل ذلك من دلائل صدق نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم ، فذرَّاته وآثاره صلى الله عليه وسلم فياضة بالخيرات والبركات والأسرار والأنوار .

واعلم أن أفضل العلوم وأشرفها وأصلها وأنفعها للإنسان وأسعدها له في دنياه وآخرته هو العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي لا تنفك عن القرآن ، ولو فقد الإنسان هذا العلم وفقد الإيمان بالقرآن لصار أضلَّ من البهائم كما وصف سبحانه الكافرين فقال :

{ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً } ، وقال تعالى : { والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم } .

---

[1] انظر البحث في كتاب الشمائل للشيخ الإمام ص ٣٠ حول خصائص ريق النبي الشريف صلى الله عليه وسلم وستجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .

ولذلك قدَّم سبحانه ذكر نعمة العلم بالقرآن على نعمة خلق الإنسان وإيجاده ، لأن شرف الإنسان وفضله يترتب على إيمانه وعلمه بالقرآن ، قال تعالى في سورة الرحمن التي ذكر فيها مظاهر امتنانه سبحانه على عباده بأنواع من الرحمات العامة الجامعة ، والتي هي مظاهر وآثار لاسمه سبحانه (الرحمن) وذكر فيها وجوهاً من رحمته الخاصة بالمؤمنين ، قال تعالى :

{ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان } .

وهذا الإنسان الذي ذكره سبحانه في هذه الآية بقوله {خلق الإنسان } هو أشرف إنسان أنزل الله عليه القرآن وعلمه البيان عن القرآن وهو سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهو الإنسان الكامل المكمَّل الذي قال الله تعالى له : { إن علينا جمعه وقرآنه } أي : نجمع القرآن في صدرك ونقرئك إياه - (ثم إن علينا بيانه) أي : أن نبينه لك حتى تبين للناس معاني القرآن وأحكامه كما قال سبحانه في آية أخرى : { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم } ، ولذلك قال سبحانه : { الرحمن علم القرآن } أي : لأفضل إنسان خلقه ، { خلق الإنسان } وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي { علمه البيان } أي : عن القرآن فافهم ، أما خلقه سبحانه لجنس الإنسان من آدم عليه السلام وذريته فقد ذكر ذلك سبحانه بعد آيات في سورة الرحمن فقال جل وعلا : { خلق الإنسان من صلصال كالفخار } .

وفي هذه السورة – سورة الرحمن - ذكر سبحانه أنواعاً من رحماته على عباده وامتن بها عليهم ، وذكر عذاب الكافرين في جهنم فقال جل وعلا :

{ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي آلاء ربكما تكذبان } .

فهو سبحانه وإن عذب الكفار في جهنم إلا أنهم لم يخرجوا من دائرة اسمه سبحانه { الرحمن } ورحمانية الله العامة محيطة بهم ، وذلك لأنه سبحانه عدل بهم فعاقبهم كما يستحقون بمقتضى عدله ، والعدل صفة كمال ورحمة [1] .

---

[1] كما أنه سبحانه شرع حدوداً وعقوبات في حق من ارتكب بعض المحرمات كالزنا وشرب الخمر والسرقة ... ، وقد تخفى الحكمة من تلك الحدود على بعض الناس ويصعب عليه تقبلها ، ولكنه إذا تعقل وتدبر وأنصف لَعلم أن الله تعالى العليم الحكيم الذي خلق الخلق - وهو أعلم بمصالحهم - شرع لهم من الأحكام ما قام على حكم عالية ، وهذا من جملة رحمته العامة سبحانه بعباده لأن شريعة الله لعباده هي رحمة بهم لأن فيها صلاحهم وسعادتهم ، ففي قطع يد السارق مثلاً إيقاف للسارق عند حده لئلا يتمادى في السرقات ويجره ذلك إلى ما هو أعظم ، فيبقى قطع يده رحمة به ليقف عند حده في الفساد ويرجع عما هو عليه ، ثم إن في ذلك نشراً للأمان بين الناس لأنهم يعلمون أن من تجرأ على السرقة فستقطع يده ، ومن قتل نفساً بغير حق فسيقتل وهكذا ...
ألا ترى إلى من أصيب بداء في جسده كالدمامل مثلاً وذهبتَ به إلى الطبيب فقال : هذا يحتاج إلى شق وتجريف ، فقد يقول أهل المريض للطبيب : ارحمه ولا تفعل به كذا وكذا ، فيقول الطبيب : أنا سأرحمه إن فعلت به كذا وكذا ، لأني بذلك أقطع دابر الداء أن ينتشر في جسده فيهلك .

ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى يكشف لأهل الجنة عن عذاب الكفار وهم في جهنم حتى تشفى صدورهم ، ويروا أن عذاب الله حلَّ بأعدائهم ، وأن الله لا يخلف الميعاد ، كما قال سبحانه : { فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون } .

وهذا من جملة رحمته سبحانه بالمؤمنين أن أطلعهم على عذاب أعدائهم الكافرين ، وأن الله قد انتقم منهم ، فيفرح المؤمنون ويحمدون الله تعالى .

واعلم أن شرف الإنسان وكرامته عند الله تعالى على حسب حمله للقرآن الكريم وإن كان أمياً إلا أنه مؤمن بالقرآن يحل حلاله ويحرم حرامه ويعمل بأوامره ، وذلك لأن سر القرآن وروحه قد دخلت قلبه كما تقدم معنا أن للقرآن الكريم نَصِّهِ وحروفه وكلماته وآياته نوراً ، قال تعالى : { فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا } ، وقال جل وعلا : { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا } فأي قلب تقبل القرآن حي بروح القرآن وآمن ، وأي قلب عاند وعارض فقد سرت روح القرآن في قلبه لكنه أبى واستكبر عن تقبلها ، قال تعالى : { كذلك نسلكه} - أي : الروح القرآني – { في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم } .

حتى قال قائلهم – الوليد بن المغيرة - لما سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم : [والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول البشر] [1] .

قال تعالى : { وإن أحد من المشركين } - وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حرب وعداوة – { استجارك } - أي : طلب الأمان والجوار منك – { فأجره حتى يسمع كلام الله } أي : أعطه الأمان واتل عليه وأسمعه كلام الله ، وإن كان أعجمياً لا يفهم العربية إلا أن لكلام الله نوراً وروحاً تسري في قلب السامع ، ولذلك جاءت الآية : { حتى يسمع كلام الله } ولم يعلقها سبحانه على الفهم فلم يقل جل وعلا : [حتى يفهم كلام الله] ، فإن كان السامع صاحب إنصاف آمن ، وإن كان ظالماً متكبراً فإنه لا يعترف به ولا يؤمن ، ظلماً وعلواً .

ولقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يفهم من القرآن فهم أهل العناية والفضل الذي أوتيه كبار الصحابة ، كل ذلك ببركة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له وتفْله في فمه ومسحه على رأسه .

---

[1] إلا أن أبا جهل وجماعته ظلوا يلحون عليه حتى تراجع عن كلامه وبقي على شركه وكفره .

ومن مفاهيمه رضي الله عنه أنه فسر العدل في الآية : { إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى } بـ (لا إلٰه إلا الله) ، ففسر العدل بالتوحيد ، وإن كان العدل هو إقامة الحق وتجنب الظلم إلا أنه يشمل معنى أعم وأكبر في نظر ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا تخالف ولا تناقض في تلك المفاهيم ، فالفهم على مراتب وهناك فهم فوق فهم ، وفهم فوق فهم وهكذا ، وكل المفاهيم والمعاني منسجمة متوافقة لا تناقض بينها .

فتدبر قوله تعالى : { والسماء رفعها ووضع الميزان } أي : ونصب الميزان ، وهو ميزان العدل الإلهي الذي صلح به أمر السموات والأرض ، فلا يجري في الكون أمر إلا بموجب الحكمة والعدل الإلهي ، وإن أول ما يطالبك به هذا الميزان أن تشهد بأنه (لا إلٰه إلا الله) أي : أن تعرف لصاحب الحق بحقه ، فإذا فعلت ذلك فقد أنصفت وعدلت ، وهذا ما أمر الله به بقوله عز من قائل : { إن الله يأمر بالعدل } أي : أن تعترف وتشهد له بالربوبية والإلهية ، فهو جل وعلا الرب الخالق المدبر المعبود ، ومَن نسب الألوهية لغيره فقد وقع في الظلم ، ولذلك قال الله تعالى : { إن الشرك لظلم عظيم } فلا أحد أظلم من المشرك والكافر ، لأنه نسب الحق لمن لا يستحقه ، ولم يعترف بالحق لصاحبه وقد بان له الحق وظهر .

ولقد أكرم الله تعالى أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن فتح الله عليهم أبواباً من فهم القرآن وأسراره ما لم ينله غيرهم ، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه لما سأله بعض التابعين : هل خصَّكم رسول الله بشيء من القرآن من دون الناس ؟ قال : لا ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه [1] .

وقال رضي الله عنه :

[لو شئت لأوقرت [2] سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب] - أي : سبعين جملاً تحمل كتباً فيها معاني سورة الفاتحة ، كل ذلك من باب الفتح الرباني والتفهيم الإلهي لمن أراد سبحانه أن يكرمه ويتفضل عليه في الدنيا والآخرة ، ولا ينال أحد ذلك إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله عليه القرآن الكريم بِنَصِّه ومعانيه وأسراره وروحه ونوره ، قال الله تعالى : { واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون }

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال :
قلت لعلي رضي الله عنه :هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟
وفي سنن البيهقي : هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شئ سوى القرآن ؟
قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن .

[2] قال في لسان العرب : الوِقْرُ : الحِمْل الثقيل

مع أن النور - وهو القرآن - أنزل عليه صلى الله عليه وسلم إلا أنه أنزل عليه وهو معه لا ينفك عنه ولا يفارقه ولا يُطلب إلا منه صلى الله عليه وسلم ، ولا يبتغى إلا عنده صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال : (إنما أنا قاسم والله يعطي)[1] فهو صلى الله عليه وسلم يقسم الخيرات والبركات الإلهية على خلق الله تعالى ، وهو الواسطة بين الله وخلقه ، ومن أنكر الواسطة بين الله وخلقه فقد جهل حقيقة الإيمان وكذَّب خبر سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ووقع في الخسران ، لأنه ما عرف حقيقة التوحيد حتى يعرف حقيقة الشرك ، فَوَصَمَ به مَن أثبت الواسطة والوسيلة .

[1] انظر صحيح البخاري كتاب فرض الخمس

وإليك أيها العاقل نصاً واحداً يقطع دابر المعترض المنكر ، فقد جاء في حديث الشفاعة الذي ذكره المحدثون بروايات متعددة أن أهل الموقف كلهم جاؤوا آدم عليه السلام أولاً وقالوا : اشفع لنا عند ربك - وفي رواية البخاري : استغاثوا بآدم [1] - فلم يقل لهم آدم عليه السلام : يا بَنِيّ لقد أشركتم فلا تطلبوا من أحد من الخلق ولا تسألوا أحداً من الخلق بل توجهوا إلى الله تعالى وادعوه دون واسطة ، بل قال : (إني لست هُناكم ، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي ، ولكن ائتوا نوحاً) ... الحديث [2] .

وإن في ذلك إجماعاً من أهل الموقف كلهم بَرِّهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم على ثبوت الواسطة ومشروعيتها بل على حتميتها وأنه لابد منها كما أراد سبحانه ، ثم إقرار جميع الأنبياء والرسل على طلب وسؤال أهل الموقف ، ولم يعنفوهم أو ينكروا عليهم سؤالهم بل أحال كل نبي الأمر إلى غيره إلى أن جاؤوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسألوه واستغاثوا فقال : (أنا لها أنا لها)

- أي : أنا أغيثكم وأشفع بكم .

فكيف يُنسب الشرك إلى من توسل واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أقرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الموقف كلهم على هذا لما توسلوا به واستغاثوا به وسألوه الشفاعة ؟! نعم لا ينكر هذا إلا جاهل أحمق .

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب فرض الزكاة

[2] المسند ٢٤١٥

وقد بيَّن سبحانه وساطة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :

{ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله } فالواسطة في هداية الله لخلقه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وانظر تفاصيل البحث في هذا في موضعه .

واعلم أن القرآن والإيمان متلازمان ، فمن القرآن تستمد حقائق الإيمان ، وكلما عظم علم المؤمن وتحققه بالقرآن عظمت فيه حقائق الإيمان .

وفي الحديث عن حذيفة رضي الله عنه قال : (حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمانة) - أي : الإيمان – (نزلت في جذر قلوب الرجال) - أي : في تخوم القلب – (ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة)[1]... الحديث ، - أي : فيقوى الإيمان في القلب ويزداد ويعظم كلما ازداد المؤمن أخذاً من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم علماً وتحققاً ، فمثل الإيمان في القلب كمثل نبات في تراب الأرض لا يثمر ولا يزهر إلا بالماء ، وماء الإيمان هو القرآن وحديث سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، ونسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء حزننا وذهاب همنا وغمنا ، ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال : باب فضل من عَلِمَ و علَّم .

ثم ذكر بسنده إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا و زرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) [1] .

[1] صحيح البخاري كتاب العلم

يدل الحديث على فضل من عمل بما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم علّم غيره ، وعلى من علَّم ولم يعمل ، وإن كان الأول أفضل منه ، وأما من لم يَعْلم أو يتعلم أو يُعلِّم فهو من الخير محروم .

ويدل أيضاً على أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم بالنسبة لقلوب العباد كمثل الغيث يصيب الأرض ، والغيث ما به الإغاثة ، وأما المطر فقد يكون للإغاثة وقد يكون للهلاك والدمار ونسأل الله العافية.

فالغيث ما يغيث الله به عباده ويسد حاجتهم ، فقد ضرب صلى الله عليه وسلم مثلاً لما جاء به من الهدى والعلم بالغيث الكثير أصاب أرضاً ولم يقل صلى الله عليه وسلم : [كمثل المطر] .

فكما يحتاج الإنسان والحيوان والنبات إلى ماء السماء ، فيأتي الغيث ويسد حاجاتهم ، فكذلك ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو غيث للقلوب والأرواح ، وهو أهم وأعظم ، والعالم محتاج إلى غيث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى من حاجاتهم إلى غيث ماء السماء .

ولقد جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى والعلم ، أما الهدى فهو الدلالة والبيان إلى ما فيه خير وسعادة الدنيا والآخرة ، ومن فَقَدَ الهدى فقد وقع في الضلال وراح يتخبط في الظلمات ، كمن مشى في طريق مظلم و راح يتخبط فيه ، حتى إذا جيء بنور أنار له الطريق جعل يمشي على هدى ، وكذا من أراد البلد الفلاني فلابد له ممن يهديه أي يدله على طريقها وكيفية الوصول إليها ، وإلا كان سيره على ضلال .

فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يهدي الناس إلى طريق الخير والسعادة وحسن العاقبة ، وكل من اتبع طريقه صلى الله عليه وسلم انتهى إلى الجنة ورضوان الله تعالى .

وأما العلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وكمالاته ، والعلم الذي لابد منه لعبادة الله تعالى ، وكيفية الثناء عليه جل وعلا ، والتقرب إليه سبحانه ، وكذا العلم بما يدل على وجود الله تعالى ، وأنه جل وعلا حق واجب الوجود ، وأنه سبحانه مُتَسَمٍّ بالأسماء الحسنى ، متصف بالمحاسن والكمالات المطلقة اللائقة به عز وجل ، لأن الإنسان مخلوق لا يعرف كيف يعبد ربه سبحانه ويتقرب إليه ويثني عليه بما يليق به تبارك وتعالى ، فلابد له ممن يعلمه ذلك ، وهذا ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكما يحيي الله تعالى الأرض المادية المعروفة يحييها بالغيث ، وهو ماء السماء الذي ينزل عليها ، كذلك يحيي أرض القلوب القاسية يحييها بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، قال تعالى :

{ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور } .

وقال سبحانه في إحيائه أرض القلوب : { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيَّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون } .

فلقد نبَّه سبحانه العقلاء وبيَّن لهم أنه هو الذي يحيي القلوب الميتة ، ويُذهب عنها قسوتها ، نبه إلى ذلك بقوله جل وعلا : { اعلموا } ، وقوله سبحانه : { لعلكم تعقلون } ، لأن إحياءه سبحانه الأرض بإنزال الغيث عليها أمر مشهود مقبول لدى كل الناس .

ومَثل القلوب في تقبلها لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة كمثل الأودية الواسعة الكبيرة النظيفة الخالية من الأوخام والأوساخ ، وهناك الأودية التي تحتوي على بعض الأوخام والشوائب ، وهناك الأودية الممتلئة بالأوخام والأوساخ ، فكذلك هناك القلوب النظيفة الطاهرة التي تسمع القرآن فتتقبله وتنشرح له حتى تحيا وتربع[1] وتثمر ، وهناك القلوب التي فيها بعض الشبهات والضلالات فيأتي عليها القرآن بأدلته وبياناته فيدحض تلك الشبهات والضلالات حتى تطهر ويزول عنها الخبث وتحيا بنور القرآن .

وهناك القلوب التي لا تقبل القرآن بل تذوق حلاوته لكن لا تتشربه لأن الكبر والظلم والعجب قد سيطر عليها وحجبها عن قبول الروح القرآني وحلاوته ، قال تعالى : { أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال } .

---

[1] يقال في اللغة : رَبَعَ الربيع أي حل .

وإذا حيي القلب بغيث القرآن ربع وأثمر ، كما تخضر الأرض ويثمر نباتها في الربيع ، فلما يأتي الربيع - أي : الماء - ويروي الأرض اليابسة تراها تعشب وتخضر ويعلوها البهاء والنضار ، وكذلك القلوب إذا ظهر أثر ذلك على الوجه واللسان والأعضاء ، فترى الأنس والبهاء ظاهراً على وجه المؤمن الصادق وتجد أقواله طيبة وأعماله صالحة وأخلاقه كريمة وسيرته حميدة وهكذا ...

وقد علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته دعاءً لتفريج الكروب والهموم وفيه : (أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي [1]) .

وقد قال سبحانه : { يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإيَّايَ فاعبدون } .

فكما أن أرض الأجساد واسعة ، فأرض القلوب أوسع وأكبر ، فعلى الإنسان أن يتوجه بأرض قلبه إلى غيث رب العالمين فتحيا وتربع وتثمر وتطيب ، ولا تحجب قلبك أيها الإنسان عن الهدى والعلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كن دوماً على صلة بالقرآن الكريم وأحاديث سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، واحضر مجالس العلم والوعظ والتذكير الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا قوله تعالى : { اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها } أي : يحيي سبحانه القلوب الميتة يحييها بنور الإيمان والقرآن .

[1] طرف حديث في المسند ٤٠٩١

وإن أراضي الأجسام على أنواع في تقبلها وانتفاعها بالغيث الذي ينزل عليها ، كما بين صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم ، فمنها نقية صافية تتشبع بالماء وتدخره في جوفها على نسبة معينة ، وتعطي الخير بأن تنبت الكلأ والعشب والزروع ، وهذا مثل من اهتدى وهدى غيره ، وعلِم وعلَّم غيره .

وهناك أرض تمسك الماء بقدر يسير ، ولكن الناس ينتفعون بما أمسكته على ظهرها ، وهذا مثل من أخذ من الشرع المحمدي بمقدار ولم يسارِع في الزيادة من الأعمال الطيبة والقربات ، لكنه يعلم الناس ويهدي إلى الخيرات والطاعات ، فمثْل هذا على خير ، لكن الأولى به أن يبادر ويسارع إلى فعل الخير كما يدل الناس عليه ، كما لو هدى الناس إلى قيام الليل وبين لهم فضله لكنه لا يقوم ، فالأجدر به أن يقومه ويأمر الناس بالقيام وهكذا .

وهناك الأرض الصلبة الصخرية المنحدرة بحيث لا تشرب ماء ولا تمسك على ظهرها منه شيئاً ، فلا هي انتفعت ولا نفعت غيرها ، وهذا مثل من أعرض عما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يهتد ولم يهد غيره ولم يتعلم ولم يعلّم غيره .

وزعم بعض الجهال أن هذه الأرض التي عليها الإنسان بجسمه سيأتيها يوم تضيق بأهلها وتشح عليهم بأرزاقها وأقواتها ، وعليهم أن يبحثوا عن مصادر أخرى للقوت في أجرام أخرى .

وقد أخطأ وضل من زعم هذا لأنه لم يتدبر كلام الله الذي خلق الخلق ، ولم يهمل أسباب بقاء حياتهم ووجودهم ، قال تعالى : { الله الذي خلقكم ثم رزقكم } ، وقال جل وعلا : { يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة } ، وقال عز من قائل : { وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين } ، أي : قدر أقوات الخلائق التي سيخلقها على وجه الأرض بحيث يساوي ذلك التقدير ويسد حاجة السائلين أي المحتاجين للأرزاق والأقوات لاستمرار حياتهم ووجودهم .

وقوله تعالى : (سواء للسائلين) : السؤال في الآية هو سؤال الحال والحقيقة ، لا سؤال المقال ، وذلك لأن ذرات الكائنات والمخلوقات كلها تسأل الله تعالى أن يبقي عليها وجودها ويمدها بأسباب الحياة من هواء وغذاء وماء ، قال تعالى : { وآتاكم من كل ما سألتموه }.

أي : أَمَدَّكم بكل ما سألتموه بلسان الحقيقة ليستمر بقاؤكم وحياتكم ، وذلك لأن الإنسان لم يسأل الله بلسانه أن يسخر له الشمس والقمر والهواء والأنهار ، لكن حاله وحقيقته تسأل ذلك ، وكذلك سائر المخلوقات تسأل الله المدد بأسباب الحياة ، قال تعالى : { يسأله من في السموات والأرض }
وهو سبحانه يمد مخلوقاته بما تحتاج إليه ، فلا خلل ولا نقص في أقوات أهل الأرض وأرزاقهم ، لأن الله تعالى الذي خلق الخلق قدَّر أقواتهم على حسب حاجاتهم .

واعلم أن سؤال الحال وسؤال الحقيقة أصدق وأبلغ من سؤال المقال باللسان ، لأن الإنسان قد يقول مقالاً لكن حقيقته تخالف ذلك ، وحاله يكذب مقاله ، كما إذا ادعى رجل فقير شاحب الوجه رث الهيئة ، ثيابه بالية ، ادعى الغنى وقال : أنا غني ، ولست بحاجة إلى أحد ، فيقال له : إن حالك يكذب مقالك ، وهكذا لو رأيت إنساناً محمرّ الوجه منتفخ الأوداج فيدلك حاله على أنه في حالة غيظ وغضب وإن قال غير ذلك .

قال تعالى : { قل هو الله أحد* الله الصمد } أي : المقصود في الحاجات كلها ، فالعالم كله صامد أي : قاصد ربه أن يمده في جميع حاجاته ومهماته ، سواء كان ذلك بألسنتهم أم بحقائقهم وذواتهم ، وهو سبحانه الذي يمد الكل على حسب حاجته ، ونسأل الله تعالى أن يمدنا بالمدد المحمدي الذي أمدَّ به كبار أولياء أمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللّٰهُمَّ آمين

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجُعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب فضل العلم .

ثم أورد بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (بينا أنا نائم ، أتيت بقدح لبن ، فشربت حتى إني لأرى الريَّ يخرج في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب .

قالوا : فما أوَّلته يا رسول الله ؟ قال : العلم) [1].

القدح : هو الإناء الواسع المُعَدُ للشرب منه ، واللبن : هو الحليب الخالص .

---

[1] صحيح البخاري كتاب العلم

وفي رواية للحديث : حتى إني لأرى الريَّ يخرج من أظفاري [1] .

وفي رواية : يخرج من أطرافي [2] .

واعلم أن رؤيا الأنبياء هي نوع من أنواع وحي الله تعالى إليهم ، فهي حق .

وفي رواية : فشربت حتى رأيت الري يخرج من أناملي [3].

والإشارة قد تعود إلى الحليب أو الري كما قال العلماء .

فلقد شرب صلى الله عليه وسلم حتى امتلأ وجعل الري يخرج من أظفاره صلى الله عليه وسلم ثم أعطى فضله - أي : ما بقي في القدح - عمر رضي الله عنه ، وبذلك نال عمر رضي الله عنه من العلم والمعرفة ما نال .

وتأويل الرؤيا : هو الإخبار عما تؤول إليه ، وذلك بتعبيرها ، أي بالعبور بها من عالم المثال إلى عالم الدنيا ، وعالم المنام عالم ينطوي في عالم المثال الواسع .

واعلم أن عالم المنام عالم حقيقي له دلائله ومعانيه وآثاره ، ولو كان أمراً وهمياً أو تخيلاً لا حقيقة له لما كان له في شرع الله تعالى شأن واعتبار .

---

[1] صحيح البخاري كتاب التعبير

[2] المرجع السابق

[3] انظر كتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل

ولقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أنواع الرؤيا ، فهناك الرؤيا الصالحة ، وهناك رؤيا أضغاث أحلام ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ لهم البشرى في الحياة الدنيا } ، قال : (الرؤيا الصالحة يُبَشَّرها المؤمن ، هي جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبر بها ، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثاً ، وليسكت ولا يخبر بها أحداً) .

فلقد بين صلى الله عليه وسلم أن اللبن الذي رآه في المنام هو العلم في اليقظة ، ويستفاد من ذلك : أن ما يُرى في المنام لا يؤخذ على ظاهره في اليقظة .

واعلم أنه لابد من مناسبة بين ما يراه النائم في نومه وبين حقيقة ما تؤول به رؤياه ، ومعرفة هذه المناسبة يحتاج إلى علم وتفهيم من الله تعالى ، ولا يجوز لأحد أن يؤوِّل الرؤى بدون علم ، وفي كل الأحوال عليه أن لا يتشاءم مما يراه أو يراه غيره ، وأن لا يحمل الرؤى على ظاهرها وأن يتفاءل خيراً .

وقد بين صلى الله عليه وسلم ما يُطلب من الإنسان فعله إذا رأى ما يكره ، فمن ذلك : أن يتفل عن يساره ثلاثاً ، وأن يستعيذ بالله تعالى .

روى البخاري عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليبصق عن يساره ، وليتعوَّذ بالله من شرها ، فإنها لا تضره)[١] .

فلقد أوَّل صلى الله عليه وسلم اللبن - الذي رأى أنه يشربه في المنام - أوَّله بالعلم وهو العلم المحمدي النافع ، ولو تفكر الإنسان لوجد المناسبة بينهما محكمة قوية ، فالحليب غذاء كامل لجسم الإنسان ، ولا ضرر يتأتى منه ، بل إنه يعطى للمرضى أيضاً ، وكما لا بد للجسم من غذاء فلابد للقلب والروح من غذاء ، وهذا هو العلم المحمدي ، وهو العلم بآيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو أعظم وأهم من غذاء الجسم ، إذ لو نقص غذاء الجسم لنحف صاحبه وضعفت قواه ، أما لو نقص العلم النافع عن قلب المؤمن لنقص غذاء روحه ولضعف إيمانه الذي تتوقف عليه حياة الأبد .
وهذا اللبن - الذي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يشربه أي : الحليب - لم يُحلب من غنم أو بقر ، بل هو من الفيوضات الإلهية .

---

[١] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

ومن ذلك نهر اللبن الذي هو في الجنة ويشرب منه أهل الجنة ، قال تعالى : { مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن [1] لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) .

فلقد شرب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتوى وامتلأ ، وجعل الري يخرج من أظفاره ، يعني إن ذراته وأجزاءه صلى الله عليه وسلم قد امتلأت علماً وحكمة ومدداً ونوراً حتى جعلت تفيض وتنبع بالعلوم والمعارف والخيرات والبركات التي أفاضها الله تعالى عليه ، وبهذه الإفاضات الإلهية على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صار رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله بالله ، وأعرف خلق الله بالله ، وأتقاهم وأخشاهم لله ، وصارت ذراته فياضة بالخيرات والبركات وبالعلوم والمعارف والأسرار والأنوار .

---

[1] والحليب بمعنى محلوب من غنم أو بقر ونحوها ، ويطلق عليه اللبن أيضاً ، وقد يكون هذا اللبن غير محلوب كما في الآية السابقة والحديث المتقدم . وأما ما يعرف في زمننا هذا باللبن فهو خاثر مأخوذ من الحليب .

ولذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرصون كل الحرص على التبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم أو أجزاء انفصلت عن جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم ، كشعره وأظفاره ونخامته وبصاقه ، لما يعلمون من شرفها وفضلها وبركاتها ، لأن هذه الذرات المحمدية فياضة بالعلوم والأسرار والأنوار ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

(حتى إني لأرى الريَّ يخرج من أظفاري [1]) وفي رواية : (يخرج من أطرافي [2]) .

ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة بقيت في القدح الذي شرب منه أعطاها عمر رضي الله عنه صار بسببها عمر رضي الله عنه عالماً عارفاً تقياً ، عُرف بين الصحابة بورعه وخشيته من الله تعالى وفراسته وكشفه ، كل ذلك من آثار الفضلة المحمدية التي أعطاها له رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه :

(والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فَجّاً إلا سلك فجاً غير فَجِّك) [3] .

---

[1] صحيح البخاري كتاب التعبير

[2] المرجع السابق

[3] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم :

(لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثون فإن يَكُ في أمتي أحد فإنه عمر) [1] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما :
[ما سمعت عمر لشيء قط يقول : إني لأظنه كذا ، إلا كان كما يظن] [2] .

وكان رضي الله عنه إذا حدَّثه أحد عن أمر وزاد في كلامه ما لا صحة له ، قال له : احبس هذه احبس هذه . [3]

ولقد ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى صدره - وفي هذه الضمة إفاضة منه صلى الله عليه وسلم على ابن عباس - وقال : (اللّٰهُمَّ علمه الكتاب والحكمة) .

ونال رضي الله عنه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بقوله :

(اللّٰهُمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل) [4] ، فصار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بعدها حبر الأمة وترجمان القرآن .

---

[1] صحيح البخاري كتاب المناقب

[2] صحيح البخاري كتاب المناقب

[3] انظر كتاب مساوىء الأخلاق للخرائطي وكنز العمال ١٢ / ٥٧٦

[4] المسند ٢٩٣٧

ولقد أرسل الله تعالى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ومنها : أنه جاء يعلِّمهم الكتاب والحكمة ، وذلك ببياناته وأحاديثه صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً } .

وقال تعالى : { لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } .

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : (والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له) .

فما ظنك بعلوم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي شرب من المعرفة الإلهية حتى امتلأت ذراته وفاضت بالإيمان والعلوم والمعارف والأسرار والأنوار ؟!

نعم ، لقد أدرك الصحابة ذلك وعرفوه وآمنوا به ، فكانوا يتهافتون ويتزاحمون على التبرك بآثار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجزائه الشريفة .

وهذا ما يجب على كل مؤمن أن يعتقده ويؤمن به وهي أن ذراته صلى الله عليه وسلم مليئة بالعلوم والمعارف ، فياضة بالخيرات والبركات ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (فشربتُ حتى إني لأرى الريَّ يخرج من أظفاري)[١] .

وما هذا الري إلا العلوم والمعارف الإلهية .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعبد الله تعالى ، ويسجد لله تعالى ، ويتجلى عليه سبحانه تجلياً خاصاً لائقاً به صلى الله عليه وسلم فتنصبغ ذراته بتلك التجليات والأسرار والأنوار ، وتفيض على من التمسها متبركاً مستشفعاً .

ولو كنت أيها المؤمن في عهد الصحابة رضي الله عنهم ورأيتهم يتبركون بآثاره الشريفة صلى الله عليه وسلم ونخامته وماء وضوئه صلى الله عليه وسلم لفعلت مثلهم بمقتضى إيمانك ومحبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا عن تكلف وتردد منك ، ولو أحجمت عن فعل ذلك لكنت مشركاً أو منافقاً ، نسأل الله العافية .

---

[١] صحيح البخاري كتاب التعبير

ولقد كان أهل المدينة يرسلون صبيانهم وغلمانهم بالآنية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع يده فيها ، ويعودون إليهم بها ليتبركوا ويستشفوا متوسلين إلى الله تعالى بآثاره صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ :
[كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدَمُ الْمَدِينَةِ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا الْمَاءُ فَمَا يُؤْتَى بِإِنَاءٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا فَرُبَّمَا جَاءُوهُ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيهَا] .

وقال عروة بن مسعود الثقفي : (والله إن رأيت ملكاً قَط يعظّمه أصحابه مثل ما يعظِّم أصحاب محمد محمداً) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال :

(كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها [1] ، وليست فيه ، قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فأتيت فقيل لها : هذا النبي صلى الله عليه وسلم نام في بيتك على فراشك ، قال : فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه صلى الله عليه وسلم على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت أم سليم عتيدتها [2] فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، ففزع [3] النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (ما تصنعين يا أم سليم ؟) فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا ، فقال : (أصبتِ) .

والأحاديث في ذلك كثيرة يعجز المرء عن استقصائها ، وكلها دليل قاطع على إجماع الصحابة على التبرك والتوسل والاستشفاء بآثاره صلى الله عليه وسلم أو بأجزاء انفصلت عنه أو بأشياء مسَّت جسده الشريف صلى الله عليه وسلم .

---

[1] وكانت مَحرماً له صلى الله عليه وسلم .

[2] هو كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيها ما يعز عليها من متاعها .

[3] أي : استيقظ من نومه .

وقل لمن يعارض ويشاغب في ذلك : إن إيمانك بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إيمان ناقص ، حدَّدَه وقيَّدَه عقلك الناقص ، بحيث لو جاءك شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق مستوى عقلك لَمَا قبلته ، ولو أنه وافق عقلك المحدود لقبلته ، فأنت آمنت بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب ما حدد عقلك حدوداً ، ولم تؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه رسول الله تعالى الذي خُص بالمقامات الفردانية العالية .

فيجب عليك أولاً أن تصحح إيمانك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتطَّلع على شمائله وخصاله وخصائصه صلى الله عليه وسلم التي خصه الله بها ، وتتعرف على سيرته وسلوكه صلى الله عليه وسلم وأخلاقه العظيمة لتزداد حباً فيه ، فإن محبة المحب تزداد كلما عرف واطلع على محاسن وكمالات محبوبه ، ولا أعظم ولا أكمل من محاسنه وفضائله صلى الله عليه وسلم.

وسل الله تعالى أن يشرح صدرك للنور المحمدي ليستنير قلبك بأنوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله للعالمين سراجاً منيراً ، أي : منيراً لعقولهم وقلوبهم وأجسادهم وأرواحهم ، حتى إذا زكت نفسك واستنار قلبك وصار فيك القابلية والاستعداد لتلك النفحات والبركات المحمدية أصابتك نفحة محمدية ربانية تسعدك في الدنيا والآخرة ، وصار عقلك وقلبك متعلقاً متعشقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتذوقت حلاوة حبه ونعيم قربه صلى الله عليه وسلم ، لأن قلوب المتقين تنجذب إلى محبته صلى الله عليه وسلم والوقوف على بابه صلى الله عليه وسلم وهذا كَلَفُها وولعها .

ولو أنك – من باب ضرب المثال - سألت الإبرة أو المسمار المعدني الذي ينجذب إلى قطعة الفولاذ إذا قربتَه منها : مالك تسرع إلى الالتصاق بها ؟

لأجابك بلسان حاله : خلِّ عني ، فما الأمر إلي ، وليس لي اختيار في ذلك . وكذلك الناس ، فهم معادن ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام البخاري[1] : (الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) .

وأشرف معدن وأفضل معدن خلقه الله تعالى هو المعدن المحمدي صلى الله عليه وسلم ، ولا ينجذب إليه صلى الله عليه وسلم إلا القلوب المستعدة لذلك والقابلة لذلك ، لأنه لابد من المناسبة بين المعدنين حتى ينجذب أحدهما إلى الآخر .

فإليه صلى الله عليه وسلم تأوي أرواح المحبين ، وفي حضرته صلى الله عليه وسلم تجتمع قلوب المتقين ، ولو تباعدت أجسادهم في نواحي الأرض .

---

[1] في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء

ولما ودَّع صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه وأوصاه ، قال له :

(لعلك لا تراني بعد عامي هذا ، ولعلك تمر بمسجدي وقبري) ، فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفت صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى المدينة وقال : (إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا) [1] .

اللّهُمَّ اجعلنا منهم وعطف علينا قلب الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم . اللّهُمَّ آمين

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

[1] المسند ٢١٠٤٠ وصحيح ابن حبان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني عشر :

الحمد لله رب العالمين ، و أفضل الصلاة و أكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب الحرص على الحديث .

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال :

(قيل : يا رسول الله مَن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لِما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، أو خالصاً من نفسه) . اهـ

قول البخاري رضي الله عنه : [باب الحرص على الحديث] يعني الحرص على سماع الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم الذي أفضل وأشرف كلام المخلوقات كلها .

وإذا أطلقت كلمة [حديث] فتعني حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما كلام الله تعالى فيقال له [القرآن] .

والقرآن كلام الله تعالى القديم ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حادث فيقال عنه : [حديث] .

وفي لغة العرب يقال : [فلان يتحدث الحديث] أي بالأقوال ويقال : [فلان يُحدِث حدَثاً] أي بالأفعال ، فالتحدث بالأقوال ، والإحداث في الأفعال .

فيقال : [أحدث فلاناً حدثاً] أي فعل فعلاً ، و [تحدث فلان] أي : قال قولاً .

وإن أشرف أحاديث المخلوقات وأفصحها وأجمعها وأبينها هو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أعطاه الله تعالى جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه .
كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

(أوتيت جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه) الحديث [١].

---

[١] انظر مصنف ابن أبي شيبة

وأما قوله تعالى : { الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني }

وقوله صلى الله عليه وسلم : (أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله) [1]

فيعني أن أصدق ما يُتحدث به هو كلام الله تعالى وهو محدث النزول ، كما قال الله تعالى : { ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون }
أي : محدث نزوله لا صدوره من الله تعالى فهو كلامه القديم جل وعلا .

وفي رواية للحديث المتقدم (قلت : يا رسول الله ....) [2] يعني أن السائل أبو هريرة رضي الله عنه كما دل عليه سياق الحديث .

ويدل هذا الحديث على أنه يجب على المؤمن أن يكون حريصاً على سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والانتفاع منه .

وإن علامة الإيمان الصادق لدى المؤمن أن ينشرح صدره وينفتح قلبه وتطرب روحه لدى سماع حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يجد من نفسه ذلك فليعالج نفسه ليقوى إيمانه وتزداد محبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بكثرة العبادات والنوافل وذكر الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتمسك بالأوامر الشرعية واجتناب المناهي .

---

[1] تقدم تخريجه

[2] انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق

ويدل هذا الحديث أيضاً على أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سأله أبو هريرة رضي الله عنه وخاطبه بصيغة الرسالة فقال :

(يا رسول الله مَن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟)

وإن شرف الرسول صلى الله عليه وسلم وفضله ، وشرف رسالته وفضلها ، لا يعلمه إلا الله الذي أرسله ، وخاصة أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي أجمع الرسالات وأعمُّها وأبقاها إلى يوم الدين .

وفي الحديث أيضاً تعليم لسائل العلم أدب السؤال مع معلمه .

ولقد أثنى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي هريرة رضي الله عنه لحسن سؤاله واهتمامه وحرصه على سماع أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك أيضاً تعليم للمعلم والمسؤول أن يثني على سائله العلم ، وأن يكرمه بالكلام ، ولا يهزأ به ولا يزدريه ولا يستخف بسؤاله .

وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة :

(لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك)

يعني أنا أعلم حرصك على سماع حديثي يا أبا هريرة ، وأنا أعلم أنه لا يسألني عن هذا الحديث أحد قبلك .

وقول أبي هريرة رضي الله عنه : (يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟) سؤال عن أسعد الناس بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ إن السعداء بشفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرون ، لكن سأل أبو هريرة رضي الله عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أسعد الناس بشفاعته صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس على مراتب : فهناك الشفاعة العظمى العامة لجميع الخلائق بمن فيهم من كافر ومؤمن ، فيشفع صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف بعد أن اشتدت عليهم المخاوف والأهوال ويخلصهم من أهوال الموقف حتى ينفض الأمر إلى عالم الحساب .
وهذا هو المقام المحمود المشار إليه بقوله تعالى : { عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً } وقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء الوسيلة المطلوب من المؤمن قوله بعد سماع الأذان : (وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته) [1].

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان

و من خطر عالم الموقف في الآخرة وعظمته أن يظهر فيه قوله تعالى :

{ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه } فمنهم من أغناه شأنه عن غيره بأن اشتغل بذنوبه وسيئاته وهول ما يجري عليه ، ومنهم ومنهم ....

ومنهم من كان شأنه وحاله مع الله تعالى ، وهؤلاء يمرون على عالم الموقف وأهواله ولا يرونه إلا كصلاة مكتوبة كما جاء في ذلك الحديث [1] .

ومنهم في نعيم مع الله تعالى كما كان أحدهم يتنعم في صلاته في الدنيا وقد قال الله تعالى :

{ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون } .

ولم يكن من منقذ ومغيث للعالم من أهوال ذلك الموقف وكرباته إلا الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي إذا استغاث به الناس قال لهم : (أنا لها أنا لها) .

---

[1] روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال :
(قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ما أطول هذا اليوم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) .

وفي رواية البخاري لحديث الشفاعة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم ، وقال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم)[١].

وإن الإنسان إذا وقع في ضيق وكرب فإن أول ما يتبادر إليه ذهنه اللجوء إلى والده ، فلذلك ترى الناس يوم القيامة ذهبوا إلى أبيهم آدم واستغاثوا به فاعتذر وأظهر عجزه عن التقدم لذلك المقام فذهبوا إلى نوح عليه السلام وهكذا إبراهيم ومن ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام .

ولو أن آدم أو نوحاً عليهما السلام دلَّهم مباشرة إلى أن يذهبوا إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لَمَا ظهر تقاصر بقية الأنبياء عن ذلك المقام ، ولما ظهر مقامه الفرداني صلى الله عليه وسلم في ذلك ، إذ لو أنهم استغاثوا مباشرة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأغاثهم لربما يتبادر إلى ذهن أحدهم أنهم لو أنهم استغاثوا بغير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأغاثهم ، لكنهم بذهابهم إلى آدم وإلى من بعده من الرسل عليهم السلام من أولي العزم ، تبين فضله صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل ، وأنه وحده صاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم .

[١] صحيح البخاري كتاب الزكاة

وهناك شفاعات خاصة يشفع بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنها للمذنبين من أمته ، وهي على مراتب : فمن المذنبين مَن يشفع بهم فلا يعذبهم الله تعالى ، ومنهم من يخرجهم من جهنم بعد أن تمضي عليه مدة .

ويشفع صلى الله عليه وسلم في أقوام من أهل الجنة فيرفع الله مقامهم وتعلو منزلتهم ، وهكذا شفاعته صلى الله عليه وسلم في المؤمنين على مراتب أيضاً ، وكل منهم يسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم ، إلا أن أسعد الناس بشفاعته صلى الله عليه وسلم - والذي سأل عنه أبو هريرة رضي الله عنه في الحديث المتقدم - هو من قال : (لا إله إلا الله) مخلصاً من قلبه ، يعني متحققاً بها وعاملاً بمقتضاها ، وهؤلاء هم أهل كمال الإيمان ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بفضله وكرمه وبجاه نبيه صلى الله عليه وسلم . آمين .

وفي سؤال أبي هريرة رضي الله عنه : (من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة يا رسول الله ؟) تخصيص السؤال بمن سينال شفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، لأنه صلى الله عليه وسلم له شفاعات متنوعة ومتفرقة في جميع العوالم ، وفي عالم الدنيا أيضاً كما دل على ذلك حديث الضرير الذي علَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى الترمذي وغيره عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادع الله أن يعافيني قال : " إن شئت أخَّرت ذلك ، وهو خير ، وإن شئت دعوت " قال أبو موسى قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : " اللّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي ، اللّهُمَّ فشفِّعْه في)[1] .

قوله : (اللّهُمَّ فشفعه فيّ) أي : الآن في الدنيا شفع فيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وردَّ علي بصري بشفاعته صلى الله عليه وسلم .

---

[1] انظر سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة

ومن شفاعته صلى الله عليه وسلم بأهل الدنيا أن يشفع في المؤمنين المكثرين من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، وبمن جاء إليه مستشفعاً به مستغفراً لذنبه ، وبمن تمسك بسنته صلى الله عليه وسلم وحرص على اتباعه وهكذا .... [1]

وإذا كانت شفاعته صلى الله عليه وسلم في الناس يوم القيامة ثابتة لاشك فيها فمن باب أولى ثبوت شفاعته صلى الله عليه وسلم في الدنيا التي لا تقاس كرباتها بكربات الآخرة ولا تعدل بالنسبة لها شيئاً ، فطالما ثبتت شفاعته صلى الله عليه وسلم فيما هو أهم وأعظم فشفاعته صلى الله عليه وسلم في غيرها من المهمات أولى وأجدر ، وهي شفاعته صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة فافهم ولا تنكر ، وسل الله تعالى أن ينالك حظ وافر من شفاعته صلى الله عليه وسلم في جميع العوالم . آمين

[1] انظر بحث الشفاعة في كتاب الإيمان بعوالم الآخرة للشيخ الإمام رضي الله عنه فسوف تجد ما ينفعك بإذن الله تعالى

وإن تلاوة المؤمن للقرآن الكريم وتسبيحه وتحميده وذِكره لله تعالى يشفع به الآن في الدنيا كما دلت عليه الأحاديث ، ومنها ما رواه ابن ماجه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن مما تذكرون من إجلال الله التسبيح والتهليل والتحميد ، ينعطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل تذكر بصاحبها) أي : يشفعن به عند الله سبحانه وتعالى ، (أما يحب أحدكم أن يكون له من لا يزال يذكر به)[1] الحديث .

وأعظم الشفعاء عند الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى وجعله واسطة بينه وبين خلقه .

فلقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أسعد الناس بشفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة الذي هو أخطر الأيام وأعظمها والذي لا يبقى فيه أحد من المؤمنين إلا ناله حظ من شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار سعيداً بها ، إلا إن أسعدهم بشفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن بيَّنه صلى الله عليه وسلم في الحديث : (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : [لا إله إلا الله] خالصاً من قلبه) .

---

[1] قال في (الترغيب): رواه ابن أبي الدنيا وابن ماجه واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. اهـ.

يعني قالها بلسانه خالصاً من قلبه ، لا رياء فيها ولا سمعة ، ولا يبتغي بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى ، وطالما أنه قالها خالصاً من قلبه ، فذلك يعني أن قلبه قد غمر بالإيمان وقد أثمرت تلك الكلمة وأينعت حتى ظهر ذلك في أقواله وأفعاله فطاب كلامه وصلح عمله وفي ذلك يقول سبحانه :

{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون } .

فالكلمة الطيبة - والتي هي منبع الطيب وأصله - هي (لا إله إلا الله)
مع ملازمتها التي لا تنفك عنها (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ومثل هذه الكلمة في قلب المؤمن كشجرة النخلة الطيبة الثابتة في تخوم الأرض والتي تؤتي أكلها على مدار السنة ، فترى أن ثمارها تؤكل كل حين ، إما بُسْراً أو رُطَباً أو تمراً ، وكذلك شجرة الإيمان في قلب المؤمن لابد أن تؤتي أكلها كل حين وهي الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة .

وكما لابد لشجرة النخلة بل لكل شجرة من عناية ورعاية وسقيا ، فكذلك شجرة الإيمان في قلب المؤمن لابد أن تسقى بذكر الله سبحانه وتعالى وتلاوة القرآن الذي هو غذاء ومدد الإيمان في القلب .

وإن مستقر الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة فوق السماء السابعة عند سدرة المنتهى التي لها اتصالات بعالم العرش ، وقد قال سبحانه وتعالى :

{ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه } .

وإن مضاعفة أجر الذكر تكون على حسب حضور القلب ، وأما من ذكر الله عن قلب غافل فله أجر لا مضاعفة فيه ، ولا تدَع الذكر إذا لم يحضر قلبك بل واظب عليه ، فإنه شرف لك وطيب لنفسك ولا بد أن يحملك ذلك على حضور قلبك .

وعن المؤمن الطيب يصدر الكلام الطيب والعمل الصالح ، وكما طاب في الدنيا طاب في الآخرة ، قال تعالى : { الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون } .

وقال تعالى في أهل الجنة : { طبتم فادخلوها خالدين } .

فدخلوا الجنة وازدادوا طيباً على طيب .

وقال تبارك وتعالى : { إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير } ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم آمين .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس الكتاب

الدرس الأول	٢
الدرس الثاني	١٣
الدرس الثالث	٢٨
الدرس الرابع	٣٨
الدرس الخامس	٤٥
الدرس السادس	٥٤
الدرس السابع	٦٩
الدرس الثامن	٨٣
الدرس التاسع	٩٧
الدرس العاشر	١١٢
الدرس الحادي عشر	١٢١
الدرس الثاني عشر	١٣٥